

روایات عبر



جانیت دینی

عیناک و بصیری



عَيْنَاكَ بَصِيرِي

قالت سابرينا : أحبه بجنون ولكني أكرهه بشدة . هل يجتمع
الحب مع الكراهية ؟

بقدر تباعد الحب عن الكراهية ربما فصل بينهما خيط رفيع .
وعلى سابرينا ان تحتكم الى العقل ... بدلا من بناء الآمال
الكبيرة ... ولكن هل يمكن الاستماع الى صوت العقل عندما
يتورط القلب ؟

وتساءلت سابرينا : هل هي الشفقة التي تدفعه الى
مصاحبته ؟ ام انه فعلا أحب «مليكتة العمياء».

السودان ٧٠٠ م	اليمن ٨ ر	الكويت ٧٠٠ ف	لبنان ١٦ د.ل
U.K. £ 1	تونس ١ د	الامارات ٩ د	سورية ٨ د.س
France F 10	ليبيا ٧٠٠ د	البحرين ٩٠٠ ف	الأردن ٥٠٠ ف
Greece Drs 120	المغرب ٨ د	قطر ٩ ر	العراق ٥٠٠ ف
Cyprus P 1	مصر ٧٠٠ م	عمان ٩٠٠ ب	السعودية ٨ ر

العنوان الاصلى لهذه الرواية بالانكليزية
THE IVORY CANE

١ - اللقاء الاول

راح طائر النورس يطلق صرخة مذكورة في عنان السماء وأخذت الريح تعصف فوق المحيط الهادىء، فتندفع المياه كالدوامات تلتف حول الزوارق الراسية في ميناء اليخوت على خليج سان فرانسيسكو. وفي الافق تناهى رنين القطار الكهربائي يتحرك نحو قمة شارع هايد. وأقبلت سيارة كونتيننتال زرقاء اللون، يقودها سائقها بسرعة نحو موقف السيارات أمام الميناء. وكان السائق سيدة في منتصف الثلاثينات من عمرها ذات جمال أخاذ، وشعر أحمر، أوقفت السيارة بين الخطوط البيضاء، وبينما هي تضع يدها على مقبض الباب، ألقت بنظراتها على الفتاة الصامتة التي كانت تقبع الى جوارها، وقالت لها:

"البرد قارس في الخارج يا سابرينا، ومن المستحسن أن تنتظري في السيارة حتى أعرف ما إذا كان أبوك عاد من البحر."

وكانت العبارة التي قالتها السيدة ذات الشعر الأحمر مجرد إفادة، وليست اقتراحا. وفتحت سابرينا فمها لتحتج، فقد سئمت أن تعامل معاملة العاجز المريض. وشعرت بنفاذ بصيرتها أن ديبورا لا تأبه كثيرا لصحبتها قدر اهتمامها بقضاء بعض الوقت وحدها مع والدها.

"كما ترى ديبورا."

قالتها سابرينا مستسلمة ولكن بتذمر، وراحت تقبض راحتها بشدة على مقبض عصاها. اللحظات الصامتة التي

© Janet Dailey 1977
© 1982 Harlequin (Cyprus) Ltd.

حقوق التأليف لمجانيت دبلي
جميع حقوق الطبع والنشر والانتباس والترجمة محفوظة
لهارلكوين (قبرص) المحدودة

المراسلات :

Harlequin (Cyprus) Ltd.
29 Michalakopoulou St.
Athens T.T. 612, Greece.

Printed in Great Britain by
Richard Clay (The Chaucer Press) Ltd, Bungay, Suffolk

تلت ذهاب ديبورا أثارت أعصاب سابرينا النائرة. كان يكفيها أن تتحمل أغلال قيودها الجسدية بدون حاجة الى احتمال وضع صديقة أبيها، بغض النظر عن أي اعتبار آخر. صديقة أبيها أوقلت سابرينا شفتيها في استياء وهي تردد هذه العبارة، كانت هناك صديقات كثيرات لأبيها منذ وفاة أمها، وكانت سابرينا آنذاك في السابعة، لكن ديبورا موسلي لم تكن مجرد امرأة أخرى ولولا الحادث الذي أصيبت به سابرينا منذ ثمانية أشهر، لكانت ديبورا الزوجة الجديدة لأبيها.

وقبيل الحادث كانت سابرينا تجد الأمر شيئاً رهيباً كلما فكرت في أن أباه قد عثر على واحدة يود الزواج منها. ولم تكن ديبورا موسلي من اختيار سابرينا. صحيح أنها تحبها، ولكن ما يهمها هو أن يكون أبوها سعيداً.

كانت سابرينا تتمتع باستقلال تام قبل وقوع الحادث. إذ خصصت لنفسها مكاناً هو عبارة عن مسكن صغير جداً، كان ملكاً لها وحدها. وكانت لها وظيفة تمكنها من أن تعيل نفسها. أما الآن... وصرخت الكلمة ممتزجة بنحيب يائس، وسيطول بها الزمن قبل أن تذكر شيئاً من أحلامها مرة أخرى. وسألت نفسها بهدوء وهي تنحب:

"لماذا اختارني أنا دون بقية الناس؟"
ثم أردفت تسأل بصوت ملؤه الشفقة على نفسها:
"ماذا فعلت حتى أستحق كل هذا؟ لماذا اختارني أنا بالذات؟"

واعترض الألم حلقها، إذ لم تجد جواباً على سؤالها خاصة بعدما وقع الضرر ولا سبيل إلى إصلاحه أو تعويضه، كما صرح بذلك أخصائي تلو الآخر لها ولأبيها. وستظل عاجزة بقية عمرها، ولن تكون هناك وسيلة لتغيير الوضع سوى حدوث معجزة.

وبدأت الثورة والفضب تسريان في عروقها. هل قدر لها أن تجلس للأبد في السيارات، وأن تقبع في البيت، تاركة الآخرين يقررون مصيرها؟

وخطر لها فكرة. مقززة للنفس: وفكرت سابرينا في أن ديبورا تحذوها الرغبة في أن تنفرد بأبيها، ليس من منطلق الرغبة في الاستمتاع بلحظات رومانسية معه، وإنما كجزء من خطة تدبرها لإقناعه بارسالها بعيداً إلى بيت للتأهيل. بيت للتأهيل، الكلمة دائماً تشعرها بأن ديبورا

مجرمة. وقالت سابرينا يائسة:

"أضرك اليك يا رب ألا تدع أبي ينصت إليها. لا أريد الذهاب إلى ذلك المكان. بالتأكيد توجد مدرسة أخرى."

وشعرت بالذنب وهي تصلي إلى الله طلباً للمساعدة حيث أنه يؤلمها طلب المساعدة من أحد، فقد اعتادت دائماً أن تتمتع بالاكتماء الذاتي، والآن تعتمد باستمرار على شخص ما. لعل ديبورا في هذه اللحظة بالذات تحاول أن تقنع أباه بارسالها إلى مدرسة أخرى. الآن يتقرر مصيرها وهي جالسة في السيارة دون أن تشارك بدورها في المناقشة، وإنما تدع شخصاً آخر يتدخل ليدبر شؤونها.

تذكرت سابرينا كم من الآف المرات سارت من موقف السيارات إلى المرفأ حيث يرسو زورق والدها. ولم تكن المسافة بينهما كبيرة. ورات أنه لا يوجد أي سبب يحول بينها وبين اجتياز هذه المسافة إذا ما تمسكت بالهدوء، وتمهلت في سيرها.

وبأصابع الفنان الطويلة، شدت تنورتها المخططة، وثبتت الياقة المطوية، ومرت بيدها الناعمة سريعاً فوق شعرها لتتأكد من أن خصلاته البنية مثبتة في العقد المعقوفة فوق رأسها.

وشهقت سابرينا شهقة عميقة لتقمع الاضطراب المرتعش الذي سرى في أوصالها، وفتحت باب السيارة، وخرجت إلى الرصيف، ثم أغلقت الباب وراءها، وأمسكت عصاها بحزم وتحركت في ببطء نحو سور الميناء. وشعرت بالخوف عبر عمودها الفقري فشاع الرعب في قلبها، وهي تخوض رحلتها الصغيرة.

وكان نجاح محاولتها الأولى للخروج من السيارة مشجعاً لها على الإسراع في خطوطها بلاوعي، لكن قدمها تعثرت فوق حاجز الموقف الحجري ولم تستطع أن تستعيد اتزانها وأفلتت العصا من قبضتها، وانزلت بوجهها على الرصيف.

اختفت روح الاثارة للتو، وارتعدت خوفاً وبحتت بأصابعها المرتجفة عن العصا، لكنها كانت بعيدة عن متناول قبضتها، وفيما عدا الصدمة التي ألمت بمشاعرها، فلم تحس بأي ألم. صحيح أنها لم تصب بأي ضرر، ولكن كيف تستطيع أن تتلمس سبيلها إلى المرفأ بدون عصا؟

"اللعنة... اللعنة..."

راحت سابرينا تلعن حماقتها على محاولتها الفاشلة • لو أن أباه وجدها في هذه الصورة، فذلك وحده كاف ليقنعه باقتراح ديبورا، ويؤكد أن سابرينا في حاجة إلى مزيد من التدريب بمعونة أحد الإخصائيين.

وحينما رفعت جذعها مستندة إلى أحد مرفقيها، حاولت أن تكبح جماح الفزع المتزايد ولذا رأت أن تفكر بروية في الخروج من هذا المازق الذي تورطت فيه.

"هل أنت بخير؟"

تناهى إليها صوت رجل يهمس عارضا عليها مساعدته، ورفعت سابرينا رأسها في اتجاه الصوت، فقد توردت وجنتاها بحمرة الارتباك إزاء رجل غريب يجدها في وضع كله مذلة وتضطر إلى أن تطلب منه المساعدة، لكنها تطلعت إليه في كبرياء وقالت بسرعة:

"أنا لم أصب بضرر!"

ثم أردفت تقول وهي غاضبة:

"عصاي... هل يمكنك أن تناولني أياها؟"

فقال بصوت اختفت منه نبرة المرح:

"بالطبع."

وفي اللحظة التي استرد فيها العصا، مدت سابرين يدها لتتناولها منه • ورفضاً لتحمل مذلة شفقة بكلمة شكرا لك حتى، إلا أنها شعرت بخيبة أمل حينما ظلت يدها الممدودة خاوية، فتوجهت وجنتاها • وبغثة انسلت يدان قويتان لتستقر تحت إبطيها، وترفعا جسمها لتقف على قدميها • حدث كل هذا قبل أن تطلق زفرة اعتراض، ولمست أناملها بشرة ساعديه الصلبة • وحملت النسمة التي تهب من مياه المحيط رائحة العطر الذي يستعمله بعد الحلاقة ممزوجا برائحة رجولته المفعمة بالحيوية • كانت سابرينا طويلة القامة تبلغ خمس أقدام وسبع بوصات تقريبا، ولكن أنفاسه الدافئة، جعلتها تدرك أنه أطول منها بست بوصات على الأقل.

وكانت عصاه المثبتة فوق ذراعه، تنقر ساقها نقرأ خفيفا، فاطبقت بأصابعها عليها، ورفعتها من فوق ذراعه، وقالت له:

"من فضلك دعني أرحل."

فقال الرجل بسخرية رقيقة:

"لم يتصدع شيء فيك سوى كبريائك • اليس كذلك؟"

وحررها من قبضته فابتسفت سابرينا في سخرية، ورغم أنها اعتادت التحديق بالآخرين، لم تستطع أن تتطلع إلى وجه هذا الرجل العائل أمامها، حتى لا ترى نظرة الشفقة في عينيه، فأدارت رأسها، وتمتعت بامتعاض وهي تخطو خطوة مترددة إلى الوراء:

"شكرا لمعونتك."

وانتظرت لحظات لا متناهية وهي تطمع في أن يستأنف الرجل طريقه إلى حيث يريد، ولكنها استطاعت أن تشعر بعينيه مسلطتين على ظهرها، وشعرت أنه يتمهل قليلا ليتأكد أنها لم تصب بأي أذى من تعثرها • وخشيت أن يضطر الرجل إلى أن يقدم إليها المزيد من المساعدة، لذلك اتخذت قرارها أن تسير بجرأة • فجأة دوى صوت سيارة مصحوبا بأصوات فراكلها، فأشاع ذلك الشلل في جسمها، وتسمرت مكانها لاتحرك ساكنا، وسرعان ما أحاطت وسطها ذراع صلبة جذبتها بشدة إلى الوراء • وسألها الرجل بصوت فقد نبرته الرقيقة:

"هل تحاولين الانتحار؟ ألم تشاهدي السيارة المقبلة؟"

فقال سابرينا بهمسة:

"كيف يمكنني ذلك؟"

صوتت ثم قالت وهي لا تستطيع الفكك من الذراع الحديدية:

"عمياء!"

عندئذ سمعت وشعرت بزفرة سريعة تنطلق من صدره، قبل أن يديرها نحوه، ويصبح ساعداها سجينين بين قبضتيه • كانت عيناه تحترقان فوق وجهها حين أمسك ذقنها يرفعها عاليا، وأدركت سابرينا أن عينيها الضريبتين تتجهان إلى وجهه.

"بالله عليك، لماذا لم تقولي هذا من قبل؟"

وكان صوته الغاضب مشوبا بلسعة وحشية لم تتوقعها، واستطرد يقول:

"لماذا لا تستخدمين عصا بيضاء؟"

وشعرت بلذعة تساؤل، فأجابت بنفس نبرة صوته:

"لماذا يفترض الناس أن أسير بعصا بيضاء؟ لماذا يتوقع الجميع أن أضع نظارة سوداء على عيني؟ هل المقروض أن أتجول بعلة صغيرة من الصفيح وأصرخ قائلة معونة للعمياء • ولكوني عمياء لماذا أختلف عن الآخرين؟ ولماذا أكون

في مناي عنهم؟ إنني أكره حالتي عندهما يشير الآباء الي،
ويطلبون من أطفالهم أن يدعوا العمياء تتقدمهم. عصاي
ليست بيضاء لأنني لا أريد أن أتمتع بأية امتيازات خاصة، أو
أي شفقة.

قال الغريب بتجهم:

"إن مقتك للعصا البيضاء كاد أن يضيع حياتك، ولو أن سائق
السيارة شاهد العصا البيضاء في يدك، لاحتاط أكثر، أبطأ
السير ليتيح لك فرصة العبور، أو ربما أطلق زموه تحذيرا لك،
ولكنك ترفضين أمساك عصا بيضاء إرضاء لكبرياتك الحمقاء،
أنت لن تعيشي طويلا. ما عليك الي أن تداومي على التعرض
للسيارات، وسوف تصرعك أحداها أن عاجلا أو أجلا."

فأجابت سابرينا بصوت مختنق:

"ليس من الصعب إدراك سر كبريائي. من يفقد بصره يدرك
معنى الإهانة في التصريح بالامر."

فقال الرجل معنفا:

"من الواضح أنك ترفضين شفقة الآخرين، وتتعثرين في بركة
من الشفقة من صنع يديك."

يا لك من متعجرف!

ولم تتم سابرينا عبارتها، إذ قدرت يدها بدقة المسافة
والارتفاع قبل أن تهوي بها على وجنة الرجل، لتصفعه صفعة
مدوية، لكن مسار يدها لم يكتمل حين شعرت بيد لاسعة تلمس
وجنتيها توبيخا وتأنيبا وكانت صدمة لم تتوقعها تفاقمت
عشر مرات في أعماق نفسها، فهمست همسة غاضبة:

"كيف تجرؤ على أن تصفع شخصا أعمى؟"

فقال ساخرا:

"ظننتك لا ترغبين في التمتع بامتيازات خاصة، أليس كذلك؟
أو أنك تحللين الامور كما يحلو لك؟ قرري واختاري بين اللين
والرفق أو العنف والشدة."

ولهت سابرينا بحدة، وقد وقعت في شرك كلماتها فقالت:
"أنت شخص لا يمكن احتمالك."

وحين التقطت أنفاسها تحولت عنه، ولكن أنامله كانت
غائرة في كتفها، فتوقفت فقال لها:

"ليس بهذه السرعة، أنت أسوأ من طفل يحبو."

ثم تمتم وقد عيل صبره:

"هل تسمعين صوت أية سيارات قادمة؟ هل تعرفين الي

أين أنت ذاهبة؟ وهل عرفت اتجاهك بالضبط؟"

وسألته سابرينا قائلة:

"دعني وحدي أرجوك فمسؤولية سلامتي من شأني وحدي."
أسف....

لم يكن في نبرة صوته الأجلش ما ينبىء بالاعتذار وأردف
يقول:

"ولكنه سواء شئت أم أبيت أرى من واجبي أن تبلفي هدفك
بسلام. أذهبي وسوف أسير وراءك."

وشعرت سابرينا به يهز كتفيه استهجانا. وودت من
أعماقها أن تصرخ، لتريح نفسها لكن تصرفه الصارم أشعرها
بأن صرختها ليست سوى تبديد لطاقتها. وفكرت في اللحظة
التي سيرها أبوها مع هذا الرجل الي جوارها، وكل أنواع
الاسئلة التي سينهاه بها عليها، والقصة المحرجة التي
سترويها، عندئذ استدارت في الاتجاه الذي قدمت منه، ثم
قالت بخشونة:

"لا حاجة الي أن تجهد نفسك، سأعود الي السيارة."

"وتقومين بقيادتها... على ما أعتقد!"

وعادت نغمة السخرية الي صوته الخفيض، ورأت سابرينا
أن تتجاهل سخريته. وتملكها الارتباك والغضب وحاولت أن
تسير وتتجاوز هذا الرجل الغريب... لكنه تحرك سريعا ليسد
عليها طريقها، وسألها برقة:

"أية سيارة؟"

"الكونتيننتال الزرقاء التي تقف وراءك، في الصف الثاني."
ليس هذا هو المكان الذي توجهت اليه، حين رأيته أول
مرة.

وكزت على أسنانها ثم قالت بمرارة:

"كنت أنوي السير على رصيف المرقأ، لألقي والذي وديبورا،
حيث أنك تصر على مصاحبتي، فأنتي أفضل أن أنتظرهما في
السيارة."
فسألها:

"وهل أبحرا وحدهما، وتركاك وحدك هنا في السيارة؟"
وبدا أن نبرة صوته كانت تشير الي أن أباها وديبورا كانا
مجنحين بحقها فبادرت سابرينا تقول:

"لا، أبي أبحر وحده. أما وديبورا وأنا فقد جئنا لنعود به. أنها
الآن تقف في مكان ما على الرصيف. وكنيت ذاهبة

لأتبين سبب تأخيرها .
فسألها :

"هل ديبورا أختك؟"

تنهدت وقد نفذ صبرها :

"يبدو أنك مصر على التدخل في شؤوني الشخصية . ديبورا
سوف تصبح أُمي الجديدة، إذا كان الأمر يهمك !"

وأطبقت يده على مرفقها، وقادت قبضته الحازمة قدميها
في الاتجاه الذي تعرف سابرينا أنه موقف السيارة . وبعد عدة
خطوات ارتطم طرف العصا بالسيارة . وسألها الرجل :

"ما نوع لباس البحر الذي يرتديه أبوك؟ سأذهب لاكتشف
سبب تأخيرها ."

ورفضت عرضه، وقالت بأقتضاب :

"لا . . . أشكرك . ذهابك إليه سيقنعه بأني بحاجة الى مرافق
دائم ."

وبدا السخط في صوتها، ثم أردفت تقول :

"إذا وعدتك بأنني لن أغادر السيارة، فهل ترحل عني
وتتركني وحدي؟"

فقال لها الرجل :

"للأسف لم يعد بالإمكان إخفاء لقائنا عن أبيك ."
فتجهمت سابرينا وسألته :

"ماذا تعني؟"

"هل ديبورا ذات شعر أحمر اللون؟"

"أجل ."

"حسنا . هناك رجل يسير في اتجاه أبواب الميناء، وإلى
جواره تسير سيدة ذات شعر أحمر، إنه ينظر إلينا بوجه
غاضب وقلق ."

قالت وهي تتوسل اليه .

"أرجوك . . أنصرف قبل أن يصل إلينا ."

"لقد شاهدني معك . لو كنت في مكان أبيك لراودني الشك إذا
رأيت رجلا غريبا يتحدث إلي ابنتي وينصرف فجأة عند
قدومي . من الأفضل أن أمكث معك ."
لا . . .

وهمست سابرينا متوسلة، إلا أن كلمات التوسل لم تعد
تجدي، أذ دوت صلصلة أبواب سور الميناء وهي تفتح وتغلق،
فقال لها الرجل :

"كفاك ارتباكاً وكأنني تقدمت إليك بعرض غير مهذب ."

وكان صوته الخفيض مختلطا بابتسامة دافئة، وهو يتمتع
بقلقها الواضح للعيان، وحاولت بذكاء إخفاء ارتباكها
بابتسامة رسمتها على شفتيها . وسمعت صوت أبيها يرحب
بها قائلاً :

"سابرينا ."

وشعرت بخفوت في نبرة صوته الذي اعتادت أن تسمعه
مفعماً بالدفء وهو ينادي اسمها . وأردف يقول :

"هل ضقت ذرعاً بالانتظار؟"

وانتابها توتر عصبي، وبذلت جهداً للاحتفاظ بابتسامتها
الباهتة فهي تدرك تماماً معنى نظرتها الفاحصة، فاستجمعت
شجاعته وقالت :

"أهلاً بك يا أبي، هل استمتعت برحلة بحرية طيبة؟"

وضحك أبوها وسألها :

"وماذا أيضاً؟"

وأحست سابرينا أن أباه يتساءل عن الرجل الذي يقف إلى
جوارها . وشغلها التفكير العميق في العثور على وسيلة
للتخلص من الرجل الغريب حتى تعذر عليها أن تجد حجة
واحدة تفسر بها وجوده إلى جوارها وأفلت منها زمام الموقف،
حين تحدث الرجل الغريب قائلاً :

"لأبد أنك والد سابرينا، كانت لتوها تسألني إذا رأيت
سفينة لك ليدي سابرينا، وهي تلقي بمرسائها على الرصيف أنا
أملك سفينة شراعية دام فورشن . أسمى باي كامبيرون ."

فقال أبوها وقد تلاشى الحذر من صوته :

"وأنا اسمي غرانت لين ."

وكانت سابرينا تمسك بلاوعي أنفاسها خلال الحوار الدائر
بين أبيها والغريب . وبعد انتهائه أطلقت زفرة صامتة . الآن
عرفت أن الغريب يدعى باي كامبيرون . وكانت واثقة أنه
لايوجد زورق يحمل اسم ليدي سابرينا، لكن الرجل اختلق هذا
الاسم عندما ذكر أبوها اسمها، وقدم عذراً معقولاً ليبرر
حديثه معها . ولمس أبوها كتفها بيده، فحولت وجهها إليه،
وعلى شفتيها ابتسامة رقيقة . سألها مداعباً :

"هل كنت قلقة علي؟"

ضحكت . . وقالت :

"أبداً يا أبي، لن أقلق على بحار قديم مثلك . فأنت

أفضل بحار رآته عيني..
حسنا..

وأحست بكلمات التأييد تتعثر على شفثيه، وتمنت لو كانت التزمت الصمت.. فلم تكن تبغي أن تذكره بالساعات السعيدة التي أمضتها معه في نزاهتهما البحرية بهذه المنطقة نفسها قبل أن تفقد نعمة البصر.. وقطع باي كامبيرون الصمت وقال:
"دائما تغلق النساء عندهما يكون الرجال في البحر.."

وقالت ديبورا بصوت خفيض:
"إنها طبيعتهم، ولا أظن الرجال يحبون رؤيتهم في غير هذه الصورة؟"

ووافق الأب على كلامها، وقال:
"تماما يا ديبورا، دعني يا سيد كامبيرون أقدم لك خطيبتي ديبورا موسلي.."

قال باي كامبيرون:
"يسرني لقاءك يا آنسة موسلي، وسامحوني لأنني استبقيتكم طويلا.. إنني واثق من أن لديكم مشاغل.."

فقال السيد لين وصوته يتسم بنبرة العرفان الصادق:
"شكرا لصحبك لابنتي سابرينا.."

وأضافت سابرينا تقول:
"وانا أيضا مقدرة لك سيد كامبيرون اهتمامك بأمري.."
فقال السيد كامبيرون:
"أجل، أعرف.."

وكانت سابرينا تعلم أن فقدان بصرها يجعل سمعها أكثر حدة.. لذا أدركت رنة السخريّة في كلماته، التي لم تلتقطها أذان أبيها وديبورا.. وكان يدرك تماما علام تشكره، واستطرد يقول:

"ربما نلتقي مرة أخرى، استودعكم الله.."
وبعد تبادل التحيات، سمعت سابرينا خطواته تختفي تدريجيا وهي تبتعد الى مكان آخر من موقف السيارات، وتساءلت لماذا لم يجد الأمر مناسبا فيذكر لأبيها لقاءهما كما حصل، ربما الدافع الى ذلك هو شعوره بالشفقة عليها ولو أنه لم يبد عليه ذلك.. وانفتح باب السيارة وراءها، فقطع سلسلة أفكارها بينما كان أبوها يقودها الى المقعد الخلفي، وقالت لها ديبورا بصوت زاجر بعدما جلسوا:
"ظننتك ستبقيين في السيارة.."

فقال سابرينا كاذبة:

"شعرت بضيق نفس، فقررت الخروج لاستنشق الهواء.."
قال غرائت لين:

"خروجك أضفى بعض اللون على وجنتيك، وخير لك الاستمتاع بمزيد من هذه النزاهات.."

تساءلت سابرينا هل تتضمن عبارته تعليقاً بريئاً، أم أنها ملاحظة تنم عن موضوع أثارته معه ديبورا، يتعلق بمدرسة المكفوفين الجديدة؟ لم يكن بإمكانها أن تجيب على هذا السؤال.. فعمدت سابرينا ما بين أصابعها، وقالت ديبورا:

"هذا السيد كامبيرون، هل التقيت به من قبل؟"

فأجابت سابرينا بخشونة وهي تدافع عن نفسها:
"لا.. لماذا؟"

"فأجابت ديبورا:

"ليس من طبيعتك أن تتحدثي الى الغرباء.. هذا هو كل ما أعنيه.."

وأجابتها سابرينا مصححة بخشونة:

"بل أنت تعنين ليس قبل أن أصبح عمياء، فأنا لم أشعر يوما ما بالخجل، وكل ما فعلته أنني سألت السيد كامبيرون عن أبي.."

وشاب الموقف لحظة صمت مطبق ولم تكن إجابتها تستدعي مثل هذا الصمت، رغبة ديبورا في إشاعة القلق وتدخلها السافر، أثار أعصاب سابرينا، وقطعت ديبورا الصمت لتسألها:

"هل يعد السيد كامبيرون واحدا من أسرة آل كامبيرون، سماءة العقارات؟"
فأجاب الأب:

"آل كامبيرون من الأسر التي أسست سان فرانسيسكو.."
ان باي كامبيرون مواطن من مواطني سان فرانسيسكو- تلك المدينة التي كانت سابرينا على اطلاع بتاريخها.. ولم تكن سان فرانسيسكو شيئا يذكر حتى عام ١٨٤٩ الذي تم فيه اكتشاف الذهب.. كانت مجرد مستعمرة صغيرة تطل على خليج سان فرانسيسكو يعني اسمها العشب الطيب.. وكان الخليج ميناء للسفن التي ترسو بغية الانطلاق نحو ذهب كاليفورنيا.. وعثر قلّة من رواد الذهب على المعدن النفيس.. لكن الكنز الحقيقي كان يكمن في السلع، والخدمات التي أتوا

بها معهم . وامتلك قلة من الرجال الجزء الأكبر من الذهب الذي جلبوا معظمه من كاليفورنيا نيفادا ، وأسهموا به في إنشاء مدينة سان فرانسيسكو .

وكانت أسرة كامبيرون من الأسر التي أسست المدينة وهذا بالتأكيد سبب كبرياء الرجل .

وتنهدت ، وتساءلت .. ما جدوى التفكير فيه ؟ فالمرء لا يلتقي بمثل هؤلاء كل يوم . ومع ذلك أحببت صوته وخاصة حين كانت نبرته الخفيفة دافئة ، محببة وسألها عما تفعل . وتساءلت عن حقيقة عمره .

وكانت مشكلتها أنها عمياء ! لذلك عليها أن تعتمد على حواسها الأخرى لتحكم على الأشخاص الجدد الذين تلتقي بهم . وقد نجحت في هذا المضمار ، وبدأت تكون فكرة عن شخصيته نتيجة المقابلة القصيرة التي تمت بينها وبين باي كامبيرون . كان طويل القامة ، يزيد قليلا عن ست أقدام ، وحين جذبها من طريق السيارة المقبلة ، أحست بمنكبیه العريضين ، والبطن المسطح ، والأرداف النحيلة ، كما أنه يتمتع بقوام فارغ كما يبدو من صلابة عضلاته . ورائحة مياه المحيط التي علقت به لأكثر دليل على قيامه برحلات بحرية عديدة في زورقه الشراعي ، مما ينم عن حبه للبحر . وكشفت لها رائحته النظيفة ، وعطر ما بعد الحلاقة شيئا من عاداته الشخصية .

وكان الغضب يقف حائلا دون إدراك روحه المرحية التي شعرت بها وخاصة تحت شعار تعليقاته الساخرة ، ويمكن قياس ذكائه من خلال أسلوب حديثه معها ، أما بالنسبة لعمله فإنه فيما يبدو يتمتع بذكاء خارق ، ودهاء مكر ، ولا شك أن ثروة الأسرة آمنة بين يديه ، هذا إذا لم يكن قد تماها .

وأسندت ظهرها الى المقعد ، واختالت بانتصار كبير ، إذ حصلت على قدر كبير من المعلومات من أول لقاء بينهما ، ولكن لم يبق سوى أمرين لم تدركهما بعد ، أولهما : عمره الذي تستطيع أن تقدره ... فهو بين الثلاثين والخمسين ، وقد اعتمدت في حكمها على نضج صوته ، وحالته البدنية ، والأمر الثاني الذي تود معرفته هو الوصف التفصيلي لملامحه .. لون شعره وطبيعة عينيه . وأخيرا شعرت بالارتياح والسرور من نفسها .

ولو هلة اعترأها السكون . كان هناك شيء آخر لم تعرفه بعد .. هل هو متزوج أم أعزب ، وهو أمر لن تستطيع أن

تتأكد منه حتى لو كانت مبصرة . هذا إذا لم يكن واحدا ممن يحتفظون بخاتم الزواج في أصابعهم . ولم تستطع أن تتذكر وجود الخاتم بأصبعه . ولم تأبه كثيرا أن تعرف أن كان كامبيرون متزوجا أم لا . كل ما كانت تفعله هو مجرد تدريب لحواسها ... وكان تدريبا مرضيا للغاية .

فكانت سابرينا تتولى العناية بالمنزل، تنظفه بالمكنسة الكهربائية، المهمة التي تعودت القيام بها متمسكة بأهداب الصبر.

وتعلمت سابرينا أن تتحمل الملل الرهيب الذي كبلها بعدما أصبحت عمياء. وعرفت كيف تكبح جماح طعم المرارة، لأن مستقبلها الفني توقف أثر الحادث. فمئذ أن أمسكت بأصابعها فرشاة الألوان أصبح الفن معشوقها. ومن ثم تبنى موهبتها الفنية أفضل المدرسين المحيطين بها، فأصبحت فنانة ناجحة وهي لم تزل في الثانية والعشرين، وبفضل ما حصلت عليه من تدريب طوال خمس عشرة سنة أتقنت رسم صور الشخصيات التي قابلتها في مطعمي مرفأ الصياد والقطعة الصغيرة.

وكانت قمة المأساة يوم حرمت من بصرها بسبب حادث السيارة. لم تعد تذكر تماما ماذا حدث في ذلك اليوم. كل ما تذكره أنها كانت تقود سيارتها عائدة الى المنزل في ساعة متأخرة من الليل، بعد قضاء عطلة الأسبوع مع صديقة لها في ساكرامنتو، وفي الطريق غلبها النعاس على عجلة القيادة فاخلفت يدها، وكان الحادث الأليم. ونقلت الى المستشفى. وعلى فراش المرض أحسّت بأن العودة السريعة الى المنزل لا معنى لها بعدما أمضت شهرا في المستشفى للعلاج من كسور في ضلوعها، وارتجاج في المخ. وكانت الحقيقة المؤلمة أن الصدمة التي أصابت رأسها دمرت الأعصاب البصرية تدميرا لا يمكن علاجه.

وهزت سابرينا رأسها هزة حاسمة، علها تدفع بهذه الذكريات بعيدا عن تفكيرها، فحياتها أصبحت بين يدي المستقبل وليس بالتطلع الى الماضي. في هذه اللحظة بدا المستقبل أمامها فارغا، مع أنها لم تكن تعتقد، منذ سبعة شهور خلت أنها سوف تنجز ما أنجزته حتى الآن.

وكانت العقبة التالية التي واجهتها سابرينا هي الخروج من المنزل لشراء زجاجة شامبو من الصيدلية على بعد خمسة مبان من منزلها، لأنها كانت تخشى حركة المرور، واجتياز أربعة تقاطعات للطريق. واستطاعت خلال الشهرين الأخيرين أن تستعيد ثقتها لمحاولة القيام بمثل هذه الرحلة بدون مساعدة أحد. بينما كانت كبرياؤها دائما تمنعها من القيام بهذه المحاولة خشية أن تضل طريقها.

ولكن سابرينا ارتدت ملابسها، وأمسكت بالعصا

٢ - فنجان قهوة

تذوقت سابرينا الكريم شانتيه التي علقت بأصابعها، ونظمت بالسكين طبقة الكريمة على سطح الكعكة. وبغض النظر عن نوع الكعكة التي تصنعها كان أبوها دائما يقول لها إنها تركت بصمات أصابعها عليها. ولم تكن سابرينا دائما على ثقة من أن طبقة الكريم شانتيه تغطي الكعكة كلها، وأنها كانت تدع الحكم لمشاعرها، وأطراف أصابعها. ووضعت سابرينا السكين على المنضدة، ثم أبعدت طبق الكعكة وأبت أن تستسلم لإحساس ينبئها بوجود ثقب بخائر في الكعكة يشوه زينتها. كانت سابرينا قبل أن تفقد بصرها بسبب الحادث تتقن كل شيء على أكمل وجه.

أما الآن فأصبح غسل الأطباق امتحانا لقدرتها ومهارتها فما بالك بطهو الطعام، الذي أتقنت طهو مختلف أنواعه فيما عدا إعداد طبق البيض، فلم تكن تعرف سوى طريقة واحدة لإعداده. طبق الأومليت لاغير ولذا أصبح إعداد وجبة الافطار من اختصاص أبيها.

وكان يوم الأحد هو اليوم الذي تقوم فيه ديبورا بإعداد الطعام كما حدث في نهاية الأسبوع الأخير. وكانت سابرينا تشعر بأن مستواها في إعداد الطعام عاديا إذا ما قورنت بالمهارة التي تمتاز بها ديبورا، ومع ذلك كان والدها دائما يمدح طهوها للطعام.

كانت هناك خادمة تتردد على المنزل مرتين كل أسبوع للقيام بمهام التنظيف الدقيق، أما بقية الأسبوع

البلوطية وذكرتها نعومة الخشب بذلك الغريب المتعجرف باي
كاميرون، الذي التقت به في ميناء اليخوت الأحد الماضي،
ولم تأبه به كثيرا.

خرجت سايرينا من المنزل بحرص، وكان الطريق منحدرًا
فراحت تعد الخطوات ببطء وحرص شديد، وهي تتجه إلى
الباب الأمامي للمنزل المجاور.

ودقت سايرينا الجرس وانتظرت أن ترد عليها جارتها،
حيث كان أبوها حريصا على أن تبلغ أي شخص بوجهتها
وميعاد عودتها، سواء أبلغت ذلك جارتها، بيغي كولنز التي
تعرفها منذ خمس عشرة سنة، أم اتصلت به في مكتبه.
وأجاب صوت نسائي على الرنين:

"من هناك؟"

"أنا سايرينا. أنا ذاهبة إلى الصيدلية. سأعود خلال ساعة
تقريبا. هل تحتاجين إلى شيء؟"
"هل لك أن تحجز لي تذكرة سفر في الطائرة المتجهة إلى
أميركا الجنوبية؟"

ضحكت سايرينا وسألت:

"هل الأهر سيء إلى هذا الحد؟"

فقالت بيغي:

"الصل بي كين منذ ساعة، وأبلغني أنه ينوي دعوة اثنين من
عملائه لتناول العشاء هنا، وليس في البيت أي طعام، وقد
نظفت الثلاجة من الثلج، كما أن محتويات الخزائن متناثرة
في الغرف."

فابتسمت سايرينا وقالت:

"سأعود خلال ساعة تقريبا. أخبريني، هل تحتاجين إلى
شيء... ثلج أو شراب أو طعام؟"
فتنهدت بيغي وقالت:

"الحل الوحيد هو أن أعثر على زوج يحسن اختيار التوقيت
المناسب. احترسي يا سايرينا من المرور وسوف أخبرك إذا
احتجت إلى شيء حين تعودين."

استأنفت سايرينا السير مرة أخرى، وساعدتها روح جارتها
المرحة على أن تستعيد قوة عزيمتها، وأصبحت الرحلة إلى
الصيدلية مجرد مغامرة وليست عقبة. وارتطم طرف عصاها
بصندوق البريد، وعرفت أين وصلت، وعبرت الطريق وبدأت
تعد خطواتها حتى لا تدخل صالون تصفيف الشعر بدلا

من الصيدلية كما فعلت في المرة السابقة. وانتابها فجأة
إحساس أثار الضحك في أعماقها، فرفعت ياقة سترتها بطرف
أصابعها، وسيطرت على رغبتها بالضحك.
وصدق إحساسها حين سمعت صوتا أجش مألوفًا لديها،
جاءها من خلفها:

"أرى أنك لا تحملين عصا بيضاء..."

وأصاب أطرافها شلل مفاجيء، قبل أن تستدير برأسها
لتواجه صوت الرجل، وقالت له ببرود:

"السيد كاميرون؟ لم أتوقع رؤيتك مرة ثانية..."

قال كاميرون:

"المدينة ليست كبيرة كما تبدو لك. كنت أقود سيارتي في
الطريق حين رأيت فتاة تسير وفي يدها عصا، فانتابني دهشة
لأنها لم تلق مصرعها بعد، وتعجبت حينما عرفت أن الفتاة
الصغيرة هي أنت."

ثم سألتها بنغمة ساخرة تعرفها تماما:

"هل تبحثين عن أبيك مرة أخرى؟"

وحولت سايرينا رأسها في الاتجاه الذي كانت تسير فيه،
وقالت:

"كنت في طريقي إلى الصيدلية. هل كنت تفقد سيارتك؟"

"أجل، تركت سيارتي في الطريق. هل تقطين هنا؟"

"على بعد بضعة مبان. لماذا توقفت؟"

أثقت عليه السؤال وهي تهز رأسها، وتحدوها الرغبة في أن
تري التعبير الذي ارتسم على وجهه. فأجاب بنعومة:

"لأطلب منك أن تتناولي فنجانا من القهوة معي..."

ولم تستطع أن تخفي القلق الذي شاب صوتها حين سألته:

"لماذا؟"

قال باي كاميرون ضاحكا:

"هل من الضروري أن يكون هناك سبب؟ لم لا تكون دعوة
يقدمها لك صديق؟"

"أنا لا أرى سببا يدفعك لأن تتناول القهوة..."

وصمتت قليلا وأوشكت أن تقول "مع فتاة عمياء" ولكنها
ختمت عبارتها بكلمة "مع".

"أعتقد يا سايرينا أنك لاتعانين عقدة التعذيب فقط، وإنما
تعانين الإحساس بعقدة النقص أيضا..."

"هذا سخف..."

وتوقفت العينان البنيتان اللتان فقدتا البصر عن التطلع اليه، وحولت وجهها الى السيارات المارة في الطريق، وأطبقت أصابعه القوية على مرفقها وقال:
"حسنا. أين تودين أن تتناولتي القهوة؟ إنني أعرف مقهى صغيرا في المبنى التالي يمكننا أن نذهب اليه."
فقالته له وهي تبدي اعتراضا واهيا:
"إنني على يقين من أن زوجتك ترحب بقضاء وقت فراغك معها."

قال لها:

"إنني واثق من ذلك... هذا إذا كان لي زوجة."
واعترضت سابرينا ثانية وقالت:
"سوف أشتري شيئا من الصيدلية."
فسألها:

"هل تحتاجين الى وقت طويل؟"

وتمنت أن يحتاج قضاء مهمتها الى وقت طويل، فلم تكن راجية في قضاء أي وقت معه، لأن نبرة الثقة التي أحاطت بلهجة جعلتها تشعر بأنها دونه بكثير، وأخيرا قالت ورأسها منكسة الى الأرض:

"لا... إن الأمر لا يحتاج الى وقت طويل."

فقال باي كامبيرون في رقة:

"افتقارك للحماسة غير مشجع، هل تفضلين أن أنتظرك خارج الصيدلية؟"

فهزت سابرينا رأسها وقالت:

"لا يغير ذلك من الموقف كثيرا."
فقال:

"في هذه الحالة... سأذهب معك. إنني في حاجة الى شراء بعض السكاير."

وشعرت سابرينا باحتكاك ذراعها بكتفها، حينما قام بفتح باب الصيدلية، وقد أطلق سراح مرفقها من قبضته لتتخذ طريقها وحدها، وتنفس الصعداء حينما سمعت خطوات كامبيرون وهي تتجه الى قسم التبغ. وبلغها صوت العاملة يسألها:

"هل هناك أية خدمة يمكن أن أقدمها لك؟"

وقبل أن تجيب سابرينا سمعت صوت رجل يرحب بها قائلا:
"سابرينا... بدأت أظن أنك نسيت أين تقع صيدليتي، لم

أراك منذ أسبوعين تقريبا."
فابتسمت سابرينا وقالت:

"أهلا... جينو."

فقال الرجل للعاملة:

"اتركيها يا ماريانا سأقوم أنا بخدمتها. اذهبي لتلبية طلب الرجل الواقف عند قسم الأدوية."
وبعد أن انصرفت العاملة، همس جينو مارشيتي في أذن سابرينا قائلا:

"ماريانا عاملة جديدة، وهي ابنة عم زوج شقيقة زوجتي، بدأت العمل في الصيدلية منذ أسبوع فقط، ولم تتعرف بعد على زمائني."

وكانت سابرينا تعرف أن جميع العاملين بالصيدلية يمتنون بالقرابة لصاحبها، لكنها أدركت أن ما ذكره جينو كان بمثابة اعتذار مهذب إذ أن العاملة الجديدة لم تكن تعرف أن سابرينا مكشوفة.

قالت سابرينا:

"إنها تتمتع بصوت جميل، وأني على يقين من أنها ستدرك حالتها."

سألها الرجل:

"ماذا تحتاجين اليوم؟ قولي لي لأحضره لك سريعا."
أريد شايبو."

وبينما ذهب جينو لأحضار ما تريد راحت تتحسّن العملات الورقية الموجودة في حقيبتها، وقد ميزت كل عملة بطية خاصة حتى يسهل عليها استخراج المبلغ الذي تريده. وعندما وقف جينو أمام الخزنة قال لها:

"ما زالت الصورة التي رسمتها لي معلقة على الحائط، والزيائن دائما يقولون لي: هذه الملامح تشبهك تماما. فأقول لهم: طبعاً... إنها صورتي، وأخبرهم أن الفنانة التي رسمتها كانت تتردد على الصيدلية منذ كانت فتاة صغيرة، وأهدت الي اللوحة بمناسبة مرور خمسة وعشرين عاما على افتتاح الصيدلية، والكل يعتقد أنها أفضل هدية قدمت لي."

فابتسمت سابرينا وقالت:

"يسرني أنها تعجبك يا جينو."

وتذكرت سابرينا كم كان سعيدا بيوم قدمت له هذه اللوحة منذ حوالي سنتين، إذ نجحت في أن تبرز فيها ملامحه،

وكان ذلك مبعث فخر لها . أما الآن فلم تعرف هذا الاحساس
للخلاق مرة أخرى ، وانتشلها صوت جينو من أفكارها وهو
يقول :

« سابرينا .. إنني لم أقصد .. »

وأحست في صوت الإيطالي المعجوز نبرة اعتذار ، وتقريع
للنفس ، وشعرت أن فلامح الاكتئاب والحزن ارتسمت على
شفتيها ، فاستعادت طبيعتها ، وقالت له متعمدة أن تفوت
عليه لهجة الاعتذار :

« لم تكن اللوحة سوى هدية متواضعة ، تعبيراً عن امتناني
لأصابع النعناع التي كنت تقدمها لي .. »
وشعرت أن شخصاً يراقبها عن كثب ، ولم تدهش حين تكلم
باي كامبرون . لأن حدسها نبهها إلى وجوده . سألتها بهدوء :
« هل رسمت هذه اللوحة ؟ »
قالت :

« أجل .. »

فقال جينو :

« أنها رائعة .. أليس كذلك ؟ لقد بعث لها أول أقلامها ، ثم
الألوان المائية والطباشير الملونة ، وبأسلوب بسيط ساعدتها
على أن تكون فنانة ، فمناحتني هذه اللوحة هدية منها .
واعتادت أن تأتي إلى الصيدلية مرة كل أسبوع ، وأحياناً
مرتين ، حتى ذلك اليوم الذي وقعت فيه الحادثة .. »
واعترت صوته نبرة أسى ثم أردف يقول :

« أما الآن فقلما تأتي إلى هنا ، وفي الأسبوع الماضي شاهدتها
وهي تمر بصيدليتي ، وتساءلت عن وجهتها ، ورأيتها تدخل
صالون تصفيف الشعر الذي يقع إلى جوارني ، فقلت في نفسي :
أوه .. أنها تنوي قص هذا التاج من الشعر الذي يزين قمة
رأسها ، ولكنني تبينت أنها كانت آتية إلى الصيدلية فأخطأت
الطريق .. »

وعقب باي كامبرون على كلامه قائلاً بصوت ناعم :

« هل تعلم أنني حين رأيتها لأول مرة ، بدت لي هذه العقدة من
شعرها البني الحريري كما لو كانت تاجاً يزين رأسها ؟ »

وأحست سابرينا بتورده وجلبتها فقالت بسرعة :

« أخذت من وقتك الكثير يا جينو ، إنني أعرف أنك مشغول
بعملك ، والزبائن في انتظارك ، سوف أراك في الأسبوع
القادم .. »

« بالتأكيد سأراك في الأسبوع القادم يا سابرينا .. »

« أجل .. وداعاً يا جينو .. »

« وداعاً يا سابرينا .. »

واستدارت بسرعة وهي تدرك أن باي كامبرون قد أقسح لها
الطريق ويتبع خطاها ، ولم تعتمد عليه ليقودها . وأجاب جينو
دون أن يبدي دهشة لوجود هذا الغريب معها :

« وداعاً يا سابرينا .. »

وقال لها باي وهما يغادران الصيدلية :

« المقهى يقع على اليسار ، عند المنعطف .. »

فقالت سابرينا بخشونة :

« إنني أعرف أي مقهى تقصد ، فقد أعتدت على ارتياده
لسنوات طويلة .. »

وسارا جنباً إلى جنب على الرصيف ، ولم يحاول أن يقودها ،
وتركها تسلك طريقها دون أية مساعدة . وأنهى باي الصمت
الذي خيم عليها وقال :

« أنها لوحة جميلة للغاية .. هل تدربت على الرسم منذ
طفولتك ؟ »

وابتلعت الفصاة التي توقفت في حلقها ، وأجابت بهدوء :

« تلقيت دروساً فيه .. كان الرسم مستقبلي وحققت فيه نجاحاً
نسبياً .. »

فقال لها :

« أعتقد ذلك .. كنت ممتازة في مضمارك .. »

فقالت بمرارة :

« كنت .. »

ثم التقطت أنفاسها قائلة :

« أنا أسفة .. »

فقال مستهجنًا :

« لا داعي للاعتذار ، لا بد أنها كانت ضربة قاسية مزدوجة أن
يفقد الفنان بصره ، ولا بد أنك تشعرين بظلم القدر ، وإلا ما
كنت إنسانة .. »

ومد يده ولمسها في ذراعها لمسة خفيفة لجذب انتباهها ،
ثم استطرد يقول :

« يمكنك الاستعانة بالدرازين الحديدية لهبوط السلم .. »

وحين استقرت يدها على الدرازين ، عادت يده إلى جانبه ،
وتقبل باي الألم الذي شعرت به لفقد مستقبلها كأمر طبيعي ،
وكان في غنى عن أي تفسير ولم يردد أي من

تلك الكلمات الجوفاء التي قالها البعض بأنها ستتغلب على عجزها يوما ما تلك الكلمات التي لم يكن بمقدور سابرينا أن تصدقها في يوم من الايام.

وعند نهاية السلم تقدمها باي ليفتح باب المقهى، وأمسكها بيد حنونة وظلا مكانهما حتى قادتهما المضيئة الى مائدة صغيرة بين مقعدين طويلين مرتفعي الظهر. ثم قال لها: "دعيني آخذ عصاك، سوف أعلقها على العمود القائم الى جوار مقعدك حتى لا تعترضني الطريق".

ناولته سابرينا العصا، وجلست على المقعد، واستقرت أناملها في عصبية فوق المائدة. كانت فيما مضى تتجنب المطاعم العامة لأنها كانت تشعر بأنها مقيدة. ولمست طرف قائمة الطعام ثم أزاحتها جانبا.

كانت المضيئة قد أقبلت نحو المائدة، وطلب باي فنجانين من القهوة قبل أن يوجه حديثه الى سابرينا:

"لديهم فطائر طيبة من صنع أيديهم... هل تحبين تناول واحدة منها يا سابرينا؟"

وهي عصبية قالت بسرعة:

"لا... لا... أشكر".

وأخرج علبه السكاير وقال:

"هل ترغبين في التدخين؟"

"لا بأس".

وأقبلت المضيئة بالقهوة في اللحظة التي وضع فيها باي سيكارتة مشتعلة بين أصابع سابرينا، وقرب المنفضة قليلا حتى تكون في متناول يدها وسحبت نفسا عميقا من السيكارة، وانتابها دهشة خفيفة حين شعرت بدفع شفتيه على السيكارة، وسألها باي:

"هل أصب لك بعض القهوة؟"

قالت سابرينا وهي تنفث الدخان من قمها ممتزجا ببعض التوتر:

"لو سمحت... شكرا".

وساعدتها رائحة القهوة المتصاعدة في العثور على الفئجان بسهولة، فأطبقت بأصابع يدها حوله، وخيم الصمت الذي أشاع الهدوء في نفسها، حين مقابلتها الأولى له مشوبة بفطرسنه التي مازالت قائمة، وهذا ما أكد لها سلوكه حين قادها الى المقهى، وأن كان تفهمه لها قد خفف من حدة

تلك الفطرسنة.

وعلى الرغم من الجدل الذي دار بينهما حول العصا البيضاء، ألا أنها أحست بأنه بدأ ينصاع الى رغبتها في الاستقلال، وأن المساعدة التي قدمها لها لم تكن فضولية، واقترن ذلك بتعليقه الواقعي على ضياع مستقبلها، ودفعها كل هذه العوامل الى أن تعيد النظر في رأيها عنه. وبدأ لها باي كامبيرون رجلا غير عادي، وودت لو أنها التقت به قبل أن تفقد بصرها حتى تستطيع أن تقوم بدراسة ملامح وجهه. وتنهدت سابرينا فتسأل باي ساخرا:

"لماذا تنهدين؟"

فقالت باستخفاف:

"لا شيء..."

فسألها:

"مجرد عادة لقطع الوقت؟"

"أحيانا... حين لا أجد شيئا يجذب انتباهي".

ومرت سريعا بأصابعها حول حافة الفئجان ثم استطردت تقول:

"وأنساءل حين أكون وحيدة، ماذا كنت أفعل لو لم تتح لي الحياة نعمة رؤية الناس والأماكن والأشياء بكل دقائقهم فاستطعت أن أختزن ثروة من المشاهد الجميلة التي أتذكرها الآن؟"

فسألها باي بهدوء:

"إذن فأنت تؤمنين بالقدر؟"

أجابت سابرينا:

"أحيانا يبدو أنه التفسير الوحيد... وأنت ما رأيك؟"

"أعتقد أن الحياة منحتنا بعض المواهب والقدرات، وأسلوب تعاملنا معها هو دليل على شخصيتنا، وأنا أحب أن أكون سيذا تقدر".

وكانت أجابته مغلفة بروحة المرحمة. وعقبت سابرينا على رأيه بابتسامة شاحبة:

"أشك في أنك لا تبغي شيئا الا وتحقق لك".

"ربما... وربما أكون خريما على ما أبتغيه".

وغابت الابتسامة عن شفتيه ثم استطرد يقول:

"خبريني يا سابرينا... كم من الوقت مضى عليك منذ فقدت بصرك؟"

بدأت سابرينا تدرك أن باي كامبيرون معتمد على طرق الموضوع بشكل مباشر، وكان أغلب الناس الذين عرفتهم أو التقت بهم يتجنبون الإشارة إلى موضوع فقد بصرها، ويحرصون على ألا تتضمن أحاديثهم أية كلمات تشير إلى البصر لذلك تعجبت من أن صراحتة لم تؤلمها، والتقطت نفساً من السيكرة، قبل أن تحيب على سؤاله:

"منذ ثمانية أشهر تقريباً؟"

وحالها إحساس بأنه رفع حاجبه وهو يسألها مداعباً:

"وكم يوماً... وكم ساعة؟"

وحاولت سابرينا أن تبدو فاترة وهي تقول له:

"توقفت عن متابعة تحديد الزمن بعد أن أبلغني الإخصائي الرابع بأنني لن أبصر مرة أخرى."

فسألها:

"ماذا حدث؟"

قالت:

"حدث اصطدام سيارة، كان الوقت متأخراً في الليل، وكنت أقود سيارتي وأنا عائدة من ساكرامنتو، وغلبني النعاس وأنا في الطريق، فاختلت مجلة القيادة في يدي، ولم أعلم ماذا حدث بعد ذلك..."

واضطربت أصابعها فعادت تمسك بالفنجان، واستطردت تقول:

"ونقلت إلى المستشفى، ولم يكن هناك أي شهود سوى راكب دراجة بخارية تصادف مروره ورأى حطام عربتي ملقى في حفرة، فأبلغ السلطات المسؤولة التي وصلت بعد عدة ساعات من الحادث..."

وانتظرت سابرينا أن تسمع منه التعليقات تعقيباً على حديثها وخاصة بعد أن أفاضت في سرد التفاصيل وتوقعت أن يقول لها عبارات مثل: كان من المحتمل أن يكون الحادث أبلغ سوءاً مما كنت تتوقعين أو أنت سعيدة الحظ لأنك لم تصابي بشكل، ولكنه لم يتفوه بواحدة منها، وإنما سألها:

"وماذا ستفعلن الآن؟"

"لا أعرف، لقد هيات نفسي لكي أتعلم من جديد كل الأمور التي اعتدت القيام بها تلقائياً، ولما كنت قررت أن أتخذ الفن مهنة لي، لذا لم أتعلم شيئاً آخر سوى القراءة والكتابة والحساب. أما الآن فأنني أبحث عن آفاق جديدة عيشي."

أكون عبثاً على أبي."

فقال لها:

"أشك أنه يرى أنك تشككين عبثاً عليه."

"أعلم تماماً أنه لا يفكر في ذلك..."

وراحت بلا وعي تؤكد على ضمير المذكر، ولم يقب عن باي كامبيرون مقصدها، فأضاف قائلاً:

"ولكن هناك شخصاً آخر يفكر في ذلك، أليس كذلك؟ هل هي خطيبة أبيك؟"

وحاولت أن تعترض، ولكنها أومات برأسها وقالت:

"إنني لا ألوم ديبورا، فهي تريد أبي لنفسها..."

وترددت قليلاً قبل أن تتابع حديثها قائلة:

"أرجو ألا تسيء فهمي، فأنا أحبها، وفي الحقيقة أنا التي عرفتها بأبي. أنها تملك حانوتاً للتحف هنا في سان فرانسيسكو وهي تعلم تماماً أنه لا يمكن أن يجعلني وإياها في بيت واحد، وترغب في أن ألتحق بمدرسة أخرى سممت عنها حيث يدرّب المكفوفون على بعض المهارات الجديدة، لا أعني أشغال السلال أو مهناً حرفية، وإنما مهارات منومة، وتعد المدرسة أيضاً برامج للتأهيل المهني بعد أتمام الدورة..."

"وما هو رأي أبيك؟"

أجابته وعلى شفيتها إلتسامة طنوية:

"اعتقد أنها لم تخبره بعد بفكرتها، وأظن أنها تريد أن تدعني أقع في خطأ كفيل بأن يدعم موقفها حينما يعرض أبي الأمر علي..."

وسألها باي وهي تطفئ السيكرة في المنفضة:

"هل تضيقين بنفسك؟"

ومدت سابرينا أصابعها فوق الخنضدة وراحت تتطلع إليها كما لو كانت حقاً تراها، ثم قالت:

"أعتقد ذلك... إنه أمر طبيعي أليس كذلك؟ كل إنسان يريد أن يوهم نفسه بأنه مفيد..."

"ألا تفعلين شيئاً تعبرينه مفيداً؟"

"أعني بشؤون المنزل، وأقوم بطهو ألوان الطعام، ولن يكون في وسعي مواصلة أداء ذلك بعد أن يتزوج أبي ديبورا فعندئذ ستصبح هي ربة البيت..."

وتابعت النظر إلى أصابعها بفيتين فقدتا نعمة البصر ثم أردفت تقول:

أردفت تقول:

"أنا أعرف أن في وسعي أن أتعلم شيئا".
وأطبقت يديها حول الفنجان وهزت رأسها في قلق ثم
قالت:

"إنني مازلت مفعمة بقدر كبير من الكبرياء، وأعرف مدى
أهميتي ويدي دائما تحملان دائما فرشاة الفنان، لذلك أتساءل
لماذا أرجيء اليوم الذي ينبغي فيه أن تقوما بشيء آخر؟"
وماذا يقول حبيبك تجاه كل هذا؟"
"حبيبي؟ ليس لي حبيب، لي أصدقاء كثيرون من الرجال،
ولكن ليس لدي أحباب".

وعلق باي على قولها بصوت يشوبه الشك:
"أنت فتاة جذابة، ويصعب على أن أصدق أنه ليس لك علاقة
عاطفية بأحد".

وهزت كتفها باستهجان:
"كان لدي دائما مستقبلي الفني، وكثيرا ما خرجت مع بعض
أصدقائي ولكنني كنت حريصة على عدم الارتباط بهم
عاطفيا. كنت أرى أن الحب والزواج سوف يأتيان في
المستقبل. أنا سعيدة الآن بموقعي الذي اتخذته، كم من
الرجال يرغبون بالارتباط بزوجة عمياء برأيك؟"
فسألها وهو يكتف فحكته:
"ألا تعتقدين أنك تعرضين وجهة نظر ساخرة تجاه الجنس
الآخر؟"

فابتسمت وقالت:
"إنها ليست وجهة نظر ساخرة لا تجاه الجنس الآخر ولا تجاه
الصب، وإنما هي نظرة واقعية. أن الناس يشعرون عادة
بالحرج أمام الأعشى، ويحاولون أن يكونوا في منتهى الحرص
عند التعامل معه، فلا يجرحون مشاعره بالإشارة إلى عجزه عن
القيام بأية مهمة توكل إليه، أو أنه يشكل عبئا في علاقته
بهم".

فقال ساخرا:
"غريب فأنا لا أشعر بأقل عبء أو حرج وأنا أجالسك الآن".
واضطربت سابرينا حين سمعت منه هذه الملاحظة، لأنها
كانت نابعة من شعور صادق فاعترضت قائلة:
"الواقع أنني لا أعنيك برأيي هذا، وإنما كنت أشير إلى بعض
أصدقائي، الذكور منهم والإناث على حد سواء. إنهم مازالوا
على اتصال بي، يتحدثون إلي هاتفيا أو يزورونني

أو يدعونني للخروج معهم، كسابق عهدهم، وكان الفن هو
الصلة التي تربطني بهم. لذا أدرك سبب حرصهم على عدم
الإشارة إلى موضوع فقد البصر أمامي وهناك آخرون يمتلكهم
انزعاج مبهم عند الحديث عنه، أما معك فأنا في الواقع لم
أدرك بعد كنه إقبالي عليك. ووجدت نفسي أتحدث إليك في
أشياء لا تهتمك، ولا أدري لماذا أسردها على مسمعك. هل أنت
من هواة التحليل النفسي؟"

ارتسمت تقطعية صغيرة من الحيرة فيما بين حاجبيها،
وأحست سابرينا بابتسامته وهو يقول لها:
"لست محلا نفسيا، ولم أشعر مطلقا بالضجر، وإنما كنت
أتخيل كل هذه الخلجات تتصارع داخل نفسك لفترة من الوقت،
إن من السهل على الإنسان دائما أن يتحدث إلى الغرباء الذين
لم يحددوا تصورا مسبقا لآرائه، وقد حدث أنني كنت أنا هذا
الغريب الذي أمكنك العثور عليه بسهولة".

فسألته وقد ارتسمت على شفثيها ابتسامة يشوبها التحدي:
"وفي هذه الحالة، ماهي النصيحة الحكيمة التي تسديها
إلي؟"

"الغرباء لا يقدمون النصائح، إنهم فقط ينصتون".
وكانت الضحكة واضحة في صوته الخفيض وهو يجيب على
سؤالها بحنكة. واقتربت أقدام متعجلة نحو المائدة وسألتهما
المضيفة:

"هل تريدان مزيدان من القهوة؟"
فقالت سابرينا:

"لا حاجة بي إلى المزيد. أشكرك".
وتحسست سابرينا بأصابعها الأرقام البارزة الموجودة في
ميناء ساعتها ثم قالت:

"حان الوقت لكي أعود إلى المنزل".
وقال باي للمضيفة:
"الحساب من فضلك".

وفي نفس الوقت غادرت سابرينا مقعدها، ووقف باي إلى
جوارها، وهو يقدم لها العصا البلوطينية، واستقرت يده مرة
ثانية بثقة على وسطها من الخلف، وراح يقودها عبر الموائد
حتى وصلا إلى باب المقهى وانظرت هناك قليلا حتى دفع
الحساب.

وصعدا الدرج، إلى الشارع وسألها باي:

"هل قلت أنك تقطنين على بعد عدة مبان قليلة من هنا؟"

وأدارت سابرينا رأسها نحوه وقالت مبتسمة:

"أجل... يقع بيتنا على الطريق المؤدية الى الربوة العالية."

"هناك عزاء وحيد لعلاج مشكلة الربوات في سان فرانسيسكو...
فحين تشعرين بالتعب من الصعود فإنه يمكنك أن تستندي إليها..."

وضحكت سابرينا من وصفه الرقيق، وأردف يقول في صوت خفيض:

"ضحكتك هذه علامة جيدة، فقد راودني التفكير في أنك فقدت قدرتك على الضحك منذ فقدت بصرك، ولكنني سعيد أذ خاب ظني..."

بدا أن قلبها قد وثب من صدرها ليضع ثواني، واكتفت بأن تتمنى ألا يكون تعليقها ملاحظة عابرة، والتزمت الصمت... ويبدو أن باي كان يتوقع منها هذا الصمت فقال:

"سيارتي تقف بالقرب من المنعطف. دعيني أوصلك الى البيت..."

كانت الفترة التي أمضتها خارج البيت قد جاوزت الساعة التي اتفقت عليها مع بيغي كولينز، ولهذا قبلت سابرينا، وأعطته عنوان البيت ذي التصميم الفيكتوري الذي يقع في قطاع باسيفيك هايتس. وكانت ساعة اردحام المرور قد بدأت. واتخذت سابرينا من جلبه حركة المرور الصادرة عند التقاطعات مرشدا لها، فاستطاعت أن تحدد مكان البيت الذي تقيم فيه حين انعطف باي بسيارته. وقالت له:

"بيتنا هو المبنى المطلي باللون الذهبي الداكن، والمزين بخطوط بنية وبيضاء، وضعب على المرء أحيانا أن يتبين رقم المنزل..."

وفي لحظات وقفت السيارة بمحاذاة الرصيف المواجه للمنزل، وجذب باي الغرامل، وأوقف المحرك. وما أن غادرت السيارة، والتفت حولها، واتجه ليفتح الباب المجاور للمقعد الذي تجلس عليه سابرينا حتى سمعت جارتها تنادي:

"سابرينا... هل أنت بخير؟"

وسارعت الجارة الى فتح الباب، وسمعت سابرينا خطواتها وهي تهرع نحوه... لتقول لها:

"كنت لتوي قادمة لأعرف ما إذا كنت قد عدت الى المنزل أم لا، فلننتك نسيت الإتصال بي لتخبريني بوصولك..."

قالت سابرينا:

"أمضيت وقتا أطول مما توقعت..."

"هذا واضح..."

وساد صوت بيغي نبذة غريبة، نمت عن أنها رأت الرجل الذي يصاحب سابرينا وتنتظر أن تقدمه لها:

"بيغي... أقدم لك باي كاميرون. وهذه السيدة كولينز... جارتني..."

وتبادلا التحية قبل أن يوجه باي حديثه الى سابرينا ويقول:

"جاء دوري لأخبرك يا سابرينا... بأنه لا بد لي من الانصراف..."

ومدت سابرينا يدها لتصافحه مودعة وقالت:

"أشكر... لقد سعدت بذلك..."

وشد على يدها بقبضة دافئة ثابتة، بالرغم من أن المصافحة لم تستغرق سوى وقت قصير، وأردف يقول:

"سوف أراك مرة أخرى في وقت آخر..."

ورنت الكلمات في أذنها كأنها وعد منه، وتمنت أن يفني بوعده، وشعرت أن عجزه التي شابت لقاءهما الأول قد تلاشت تماما، ولاح لها الموقف غريبا حقا، إذ تساءلت: كيف وثقت به هكذا سريعا؟ كانت مستغرقة في تفكيرها حين سمعت باب السيارة يفتح ثم يغلق، والمحرك يدور وعجبت كيف كانت تحدث باي بمثل هذه الحرية، التي ما كانت لتستطيع أن تتحدث بها حتى الى أبيها الذي هو أقرب الناس إليها. وانتشلتها بيغي كولينز من تفكيرها حين سألتها بفضول:

"أين التقيت به؟"

قالت موضحة:

"يوم أن توجهت الى مرفأ اليخوت مع ديبورا لنصحب أبي الى المنزل..."

ونسيت لوهلة أن جارتها كانت تقف الى جوارها، ثم أردفت تقول:

"من ذلك اليوم التقيت بذلك الرجل الطيب... أعني..."

ثم توقفت عن مواصلة الحديث وهي فتابع برأسها صوت رجيل السيارة حتى غابت عن مسمعها، ثم استدارت الى المرأة العجوز وسألتها:

"بيغي... كيف تبدو ملامحه؟"

وتمهل المرأة قليلا لتستجمع أفكارها .. ثم قالت:
 "إنه طويل القامة .. يقترب عمره من الثلاثين، شعره أحمر
 داكن، عيناه بنيتان .. لا أقول أنه وسيم، أو بهي الطلعة ولكنه
 يبدو رجلا بمعنى الكلمة ... هل تعرفين ماذا أعني؟"
 أجابت سابرينا بنعومة:
 "أجل ... أجل ... أعتقد أنني أعرف ما تعنين .."
 وأدركت أن ملامحه قوية، مؤثرة وفجأة صرخت ببغي قائلة:
 "يا الهي! لقد نسيت أن أضع البطاطا في الفرن .. سأحدث
 اليك فيما بعد يا سابرينا .."
 "حسنا .. يا ببغي .."
 وعادت الجارية بسرعة إلى منزلها، بينما كانت سابرينا
 تستمع إلى كلماتها بلا وعي

٣ - الشعلة

سألت ديبورا سابرينا بحدة:
 "هل ترغبين حقا في القنزة على رصيف الميناء؟"
 فأجابت سابرينا وهي تنظر إليها:
 "أجل .. إلا إذا رغبت في الانفراد بأبي بعض الوقت .."
 تنهدت ذات الشعر الأحمر في يأس وقالت:
 "ليس الأمر كذلك، غرائب يقلق عليك، لأنه لا يوجد درابزين
 في الميناء ومن الطبيعي أن يهتم بسلامتك .."
 قالت سابرينا بهدوء:
 "كل الآباء يقلقون على أولادهم ولكن قلق والدي يختلف عن
 بقية الآباء وله مبرر، وأنا لا أستطيع أن أقضي بقية عمري
 متحاشية فعل ما يسبب القلق لأبي .."
 "صدقيني لو استطعت أن أجد طريقة تخلصه من قلقه عليك لما
 ترددت في اتخاذها .."
 وكان جواب ديبورا مشوبا بالمصيبة والتوتر، وهي تفادر
 السيارة التي وقفت في المكان المخصص لها في ميناء
 اليخوت .. وغادرت سابرينا بدورها مكانها ببطء واستدارت
 حول السيارة حتى وصلت إلى جوار خطيبة أبيها، وسألتهما
 وهما سائرتان نحو أبواب السور:
 "هل ذكر أبي شيئا عن موعد الزواج؟"
 "لا .. وأنا لم أطرق الموضوع معه .."
 وكхим الصمت للحظات قبل أن تواصل ديبورا الحديث:
 "أعرف بأنني امرأة غيور حريصة على الاستئثار بهن

أحب. فإذا ما تزوجت أباك وأنت هازلت تقيمين في البيت، فلا بد أن ينشأ الاحتكاك بين ثلاثتنا، وسوف يكون في ذلك إساءة لنا جميعا. وما أعلمه عن شخصيتك هو أنك تحبين الاستقلال، ولست عندك أي رغبة في أن تكوني عبئا على أبيك بقية عمرك.

وتنفست سابرينا الصعداء وهي تعلم مدى صدق الكلمات التي تفوهت بها ذات الشعر الأحمر ثم قالت:
"ولهذا تستميلين أبي لأخذ بفكرة هذه المدرسة."
فقالت ديبورا:

"ربما لا تكون هي الحل يا سابرينا، ولكنها البداية."
ورفعت سابرينا رأسها وتركت النسمة اللطيفة التي تهب من المحيط تلفح وجهها وقالت:
"أحتاج إلى الوقت للتفكير، وما زال الأمل يراودني في العثور على بديل آخر لا أعرف كنهه."

"إذن... فإن فكرة الالتحاق بالمدرسة موضع اعتبارك؟"
"من الضروري أن أضعها في اعتباري... سواء راقنتي الفكرة أم كرهتها."

واضطرب صوت ديبورا قليلا وهي تقول:
"أشكرك."

ثم واصلت الحديث بعزم وتأکید:
"أنا أحبك يا سابرينا... ولكنني أعشق أباك. لقد انتظرت طويلا قبل أن التقي برجل مثله. أرجوك حاولي أن تفهمي السبب في إصراري على أن تتركي البيت."
قالت سابرينا:

"أفهم ذلك تماما... لو كنت مكانك وأحببت رجلا فلا بد أن أكون قلقة مثلك للاستخوذ عليه لنفسي. ولكنني لن أندفع إلى اتخاذ أي قرار ما لم أكن على يقين من عدم وجود بديل له."
ولمست ديبورا بيدها مرفق سابرينا قائلة:
"اتجهي إلى اليسار."

وكانت السيدة ذات الشعر الأحمر تدرك مدى عناد سابرينا، ورأت أن الوقت حان لكي تنهي مناقشة الموضوع برمته حين أدركت أن سابرينا ستفكر في اقتراحها.

وشعرت سابرينا برغبة ديبورا، لذا غيرت برضا تام موضوع الحديث فسألت:
"هل وصل أبي؟"

فأجابت ديبورا:

"أجل أنه ينزل شراع الزورق الآن."

وبعد مرور بضعة دقائق نادى ديبورا قائلة:

"مرحبا... هل أمضيت وقتا طيبا يا حبيبي؟"

"طبعاً... طبعاً..."

وكان صوت أبيها ينم عن السعادة والرضا مما أشاع الايتسامة على شفتيها، ووجه سؤاله إلى ابنته:

"سابرينا... لم أكن أتوقع رؤيتك مع ديبورا؟"

وبدا قلق باهت على وجهها، ولكنها استعادت ابتسامتها وقالت:

"إنه يوم جميل شجعني على عدم البقاء في السيارة. لا تغلق يا أبي فلن أضل الطريق أثناء سيرتي على الرصيف."

فقال:

"سأحقي بكما بعد قليل."

وبادرت ديبورا لتقديم مساعدتها له قائلة:

"سأحضر بقية حاجياتك من القمرة، إذا شئت يا غرائث."

ولاحت على وجهه علامات التردد قبل أن يوافق على الاقتراح. كانت سابرينا تعرف أن أباهما يعثره القلق إذا تركها تقف وحدها على رصيف الميناء... وربما كانت موافقته دليلا على أن ديبورا ألقت عليه نظرة نمت عن مغالاة في حاجيتها.

كان صرير الزورق يفتزع بصوت تلاطم المياه، بينما راحت أجنحة طائر النورس ترهرف فوق رأس سابرينا، وأخذت صرخاته تنناهي إلى سمعها، ونسمات المحيط المعبقة برائحة الملح والسمك تداعب خصلة الشعر التي تتراقص فوق جبينها. وداعبها إحساس لذيذ راح يدغدغ ظهرها، وهي الحال تنبهت سابرينا إلى وقع أقدام تقترب منها، وحدثتها نفسها بأنها خطوات باي كامبيرون، وراودها الأمل في أن يتحقق جدسها، ولكن يبدو أن شخصا آخر كان بصحبته، بل أكثر من واحد، وربما كانوا ثلاثة. وتبينت من وقع الخطوات أن بين الثلاثة سيدة...

حيا باي السيد لين وقال:

"لقد اكتفيت اليوم يا سيد كامبيرون كيف حالك؟ هل أنت عائد من نزهتك أم لم تبدأ بعد؟"

فأجابت:

سنقلع بعد قليل... رأينا أن نستمتع بغروب الشمس على المحيط.

تأكدت سابرينا من كلامه أن الخطوات الأخرى التي سمعتها كانت تصحب كامبيرون الذي اتخذ مكانه إلى جوارها، وشعرت بأنه يقف إلى يسارها لا يفصله عنها سوى مسافة قصيرة للغاية وسألتها:

كيف حالك اليوم يا سابرينا؟

فماثلت برأسها وقالت وهي في كامل وعيها:
بخير...

وأحسست بأن رفاقه يرغبون في مواصلة سيرهم، ولكنه توقف ليقول:

أرى أنك نجحت في محاولتك السير على الرصيف هذه المرة دون أن يصيبك سوء. هل فعلت ذلك وحدك؟

كانت كلماته ناعمة وخفيفة حتى أن النسيم الرقيق لم يستطع أن يحملها على أجنحته لشخص آخر سوى سابرينا. وتمتمت تقول دون أن تحرك شفتيها:

لا...

وتناهى إلى أذنيها صوت نسائي نافذ الصبر يسأل:

باي... هل أنت قادم معنا؟

فأجاب كامبيرون:

أجل يا روني...

ثم التفت إلى سابرينا ورفيقيها وقال:

سأراكم مرة ثانية.

كان الوعد الذي رددته مبهما، وموجهها إلى سابرينا ورفيقيها. وقال أبوها:

رحلة طيبة...

أما سابرينا فلم تتفوه بشيء.

وران عليها اكتئاب باهت، ولكنه تفاقم حينما حمل الريح إليها تساؤل روني المتعالي عنها وعن أبيها، ولكن حدة سمع سابرينا لم تستطع أن تلتقط إجابة باي. واشتدت قبضة أصابعها على يد العصا الأبلوطية، وكانت سعيدة لأن عصاها لم تكن بيضاء، حتى لا يدرك أصدقائه أنها عمياء. فلن تحتل نظرة الشفقة في عيونهم، وأحسست بالضيق حين تصورت باي وهو يروي لهم قصة الحادث الذي تسبب في فقد بصرها. وتمتمت لو لم تستجيب لدعوته إلى تناول القيسية في

اليوم السابق، وليتها لم تبح له بمتابعتها، فسألت بجديّة:

هل أنت مستعد يا أبي؟

فقد انتابها فجأة رغبة قلقة في الرحيل، ولم تجد أية متعة في رائحة البحر أو هديره. فأجاب أبوها:

بأني حالا... هل أحضرت كل شيء يا ديبورا؟

قالت:

نعم.

وبعد دقائق كان الاثنان يقفان إلى جوار سابرينا، وأحاطت كتفيها بذراعه، وعاد بها من حيث أتت. ولم تحاول أن ترفض مساعدته، لأنها كانت تبحث عن الطمأنينة والحماية تحت كتف ذراعه.

وعندما بلغت المنزل حاولت أن تسدل الستار على ذكرى يوم الأحد، لكن الذكرى بقيت ظلا يتراقص بالقرب من حدود عالمها المظلم. ولما كانت تتذكر مواقع قطع الأثاث في منزلها، فأنها نجحت في أن تأخذ طريقها إلى الاستريو، وتدير المفتاح لتسمع أنغام الموسيقى.

ودق جرس الباب الأمامي بصوت عال قطع عليها الصمت المطبق المحيط بها، وأطلقت زفرة ضيق من هذا الشخص الذي اقتحم عليها خلوتها. وسارت نحو الباب وقالت:

نعم... من أنت؟

سألت سريعا بعد أن عثرت أصابعها على المفتاح. فأجاب الصوت:

باي كامبيرون.

وران عليها هدوء تشويه الدهشة، ظل بضع ثوان، ولم يكن صوتها مفعما بالدق. عندما سألته:

ماذا تريد يا سيد كامبيرون؟

فأجاب بصوت مرح:

إنني ما جئت لكي أبيع فرشاة أو بوليصة تأمين أو كتاب مقدسة، وإنما أعتقد أن السبب الوحيد الذي يجعلني أقف أمام بيتك هو أن أراك.

ولماذا تريد رؤيتي؟

إنني لا أريد أن أتحدث إلى صناديق. هل تنزلين؟

وتنهدت سابرينا باضطراب أمام نبرة الصوت المتحدي. فقالت:

سأكون هناك خلال دقيقة.

وأدارت المفتاح، وفتحت الباب المؤدي إلى السلم الذي يصل ما بين الطابق الثاني، ومدخل الشارع. وكان يوجد بابان عند السلم أحدهما يؤدي إلى الكراج في الطابق الأرضي. وسارت أربع خطوات ثم توقفت، وكان باب حديدي على بعد قدم واحدة منها، يحول دون دخول المارة، وكان باي يقف وراءه. سألته سابرينا بمرود:

"ماذا تريد الآن... سيد كامرون؟"

سألها بصوت ساخر:

"هل تسمحين لي بالدخول؟"

تخلت عن نزع الحزام الصامتة. وفتحت له الباب وتراجعت إلى الوراء وقد تشابكت أصابعها أمامها، وبدت عليها سمات الجد. ومالت برأسها في استعلاء مبهم عندما سألته:

"لماذا تريد أن تراني؟"

"لأن السجاء صافية، والشمس مشرقة، والنسيم لطيف ودافئ. ومثل هذا اليوم الجميل يصلح لرياضة المشي. وتوقفت لأسأل عما إذا كانت تحدوك الرغبة في أن تأتي معي."

ورأودها الشك في إخلاص كلماته، ولم تستطع أن تصدق أن هدفه من سؤالها ينبع من رغبة حقيقية في اصطحابها. إنه يشعر بالأسف لها. قالت:

"أنا أسفة... غير ممكن."

ورفضت طلبه باعتذار مهذب، فسألها:

"غير ممكن... لماذا؟"

فأجابت وهي واعية لضرورة علامات التساؤل والكبرياء التي ارتسمت على حاجبيه:

"لأنني أقوم بإعداد طبق من اللحم المشوي للعشاء، ويجب أن أضعه في الفرن..."

وأخذت تتحسس بأصابعها الأرقام المجهدة الموجودة على ميناء الساعة، ثم أردفت تقول:

"خلال خمسة وأربعين دقيقة، فإذا مشيت معك، فلن نقطع مسافة تذكر، وسوف نضطر إلى العودة سريعاً، وبعد انقضاء ساعة لابد أن أضيف البطاطا والجزر والبصل..."

"هل هذا هو عذرك الوحيد؟"

فكانت له بخزم:

"إنه عذر مقبول..."

"إذا كنت لتذرعين بهذا العذر الوحيد فهناك هل، أن تفرغي من أعداد اللحم المشوي، سأقوم بضبط الساعة لكي يشرع الموقد في العمل بعد خمسة وأربعين دقيقة. في وسعنا الآن أن نضع الطعام في الموقد، ونقضي ساعتين سويًا في التنزه، قبل أن تعودوا إلى المنزل لتضعي بقية المواد..."

وحاولت أن تعترض قائلة:

"ولكن..."

ولم تستطع مواصلة عبارتها، لأن عقلها كان صفحة بيضاء... فسألها:

"ولكن ماذا؟ هل ترغبين في التمتع برياضة المشي؟ أنه يوم جميل، يجب أن لا نقضيه في البيت..."

وتنهدت في سخط، واستدارت نحو الباب وهي تقول:

"أوه... حسناً..."

وسمعت جلجلة صوته الساخر من موافقتها المتأرجحة، وهو يقول لها:

"أدهش كثيراً من أنك تتكلمين علي دائماً بقبول دعواتي..."

وأجابت عليه بنبرة حادة:

"ربما لأنني أود أن أبحث عن جواب شاف لتقديرك هذه الدعوات..."

وسبقها ليفتح لها الباب قبل أن تبحث بيدها عن المقبض، ثم قال لها:

"لأنك إذا توقفت عن اتخاذ موقف المذافع عن نفسك كل إنسانة عمياء، فإن صحبتك تبعث على السرور..."

ومرة أخرى شمخت سابرينا برأسها في هدوء، عندما تذكرت الوقت الطويل الذي أمضته وهي تبكي حظها. ولما كانت قد بنت حياتها ومستقبلها على أساس قدرة عينيها على رؤية الأشياء التي ستقوم بدها برسمها، فإنه من الطبيعي أن تشعر بالمرارة من ظلم القدر لها. وحتى باي نفسه اعترف بذلك، وإذا كان أقر الأمر فماذا يملك من حق لكي يدينها به؟

وأخيراً سألها:

"هل أنت مستعدة للرحيل؟"

"يجب أن اتصل هاتفياً بأبي..."

قامت بحركات تنم عن عصبيتها وقالت:

"عندما تغادر جارتنا بيغي كولنز منزلها، فإن أبي يجب أن يعرف أين أذهب ومتى أعود..."

قامت بحركات تنم عن عصبيتها وقالت:

"عندما تغادر جارتنا بيغي كولنز منزلها، فإن أبي يجب أن يعرف أين أذهب ومتى أعود..."

قامت بحركات تنم عن عصبيتها وقالت:

قامت بحركات تنم عن عصبيتها وقالت:

قامت بحركات تنم عن عصبيتها وقالت:

قامت بحركات تنم عن عصبيتها وقالت:

قامت بحركات تنم عن عصبيتها وقالت:

فقال لها ساخرا:

"وخاصة إذا لقيت مصرعك على يد راكب دراجة بخارية لم تكن في حسابك".

وشدت شفيتها فأتخذها شكل خط مستقيم ثائر، وهي تشرح بوجهها بعيداً عنه، ثم تمتعت ساخرة:

"بالتأكيد تشير إلى العصا البيضاء.. أليس كذلك؟"

ووافق في تراخ وقال:

"أعتقد ذلك أذهبي واتصلي بأبيك هاتفياً".

"شكراً لك.. سأذهب بعد أن منحتني الإذن".

أخبرت سابرينا أباها سريعاً بأن بيغي غير موجودة في منزلها وأنها تتحدث إليه لتعلمه بأنها سوف تغادر المنزل لفترة، ولكنها لم تذكر له مع من.. فسألها غرانت لين:

"كم من الوقت سوف تمكثين خارج البيت؟"

ف قالت له:

"ساعتين... سأحدث اليك بمجرد عودتي".

"أعرف أن فلجو صحو، ولكن هل أنت مضطرة إلى البقاء خارج البيت كل هذا الوقت؟ فأنا لا أرحب بفكرة تجوالك في الطريق وحده".

"سأكون بخير".

ورأى عليها قلق غريب منعها من أن تخبره بأنها ستكون في صحبة باي كاميرون، ثم أردفت تقول ضاحكة:

"لا تبدأ في القلق".

وانتزع باي من يدها السماعة وحاولت أن تنتزعها لكن يدها اصطدمت بجدار صدره، فتراجعت أصابعها وكأنها اشتعلت بالنار وسمعته يقول:

"السيد لين.. أنا باي كاميرون... سابرينا ستكون في صحبتي.. ستعود ابنتك وقت يسمح لها أن تعد لك فيه طعام العشاء".

وعندما أبلغه أبوها بموافقته قال له باي وداعاً، ثم وضع السماعة في مكانها، بعد أن التفت نحوها ليقول:

"أبوك يتمنى لك وقت طيباً".

فتمتعت قائلة شكراً، ثم سارعت إلى الخزانة لتأخذ معطفها الخفيف، وحملت عصاها من فوق حامل المظلات، وسمعت باي وهو يفتح الباب فسارعت تهر من خلاله، وأنصت وهو يوصل الباب وراءها قبل أن يقتفي خطواتها تهبط درجات

السلم وقال لها:

"فكرت أن نستقل حافلة هايد سكرت لنبلغ ميدان جيرارديلي.. هل توافقين؟"

وكان المرح يشوب نبرة صوته، فهزت كتفيتها باستخفاف وقالت:

"لك ما تريد.."

لم يصف كلمة أخرى لكلامه، ولو لم يمك مرفقها أثناء عبور تقاطع المرور، لكان في وسعها أن تسير وحدها حتى تبلغ موقف الحافلة. وفيما عدا كلمة شكراً التي قالتها له وهو يعينها على صعود الحافلة والهبوط منها، فإنها لم تتقود بكلمة أخرى معه.

"ألم تتخلصي بعد من عيوسك؟"

سألها وهو يخفي ضحكته، بينما أمسكت قبضته الحازمة بوسطها حتى يستطيعا اختراق جحافل السياج الذين يعبرون الطريق. وردت سابرينا عليه ببرود:

"أنا لست عابسة.."

فقال ساخراً:

"أحقاً ما تقولين؟"

قالت وما زالت مسحة من الغضب مرتسفة على وجهها:

"ربما قليلاً، ولكنك تتخذ أحياناً مظهر رئيس العمل الذي لا يمكن احتماله.."

فقال لها:

"إن عنادك فاق الحد مؤخرًا والناس الذين اعتادوا الاهتمام بك لا يحبون التفوه بكلمة لا.."

"ونفس الشيء يمكن أن يقال لك.."

"إنني واثق أن هذا ليس بصحيح.."

وأدركت سابرينا قبوله المتراخي لنقدها، ثم أردف يقول:

"لم يكن الحديث عني، إنما كنا نتحدث عنك وأنت عابسة.."

فأجابت قائلة:

"لأنك تناقش الأمور، وتدير دفتها دون أن تسألني.."

"وما رأيك في الموقف الآن؟ هل تعلنين حالة الحرب أم تسير كأصدقاء؟"

وكانت تشعر بعينيه وهما مستلطان على وجهها، عندها

استطرد يقول:

"لم تكن الحالة بهذه الصورة السيئة عندهما سرنا سوياً"

وأطلقت سايرينا زفرة عميقة، وشعرت بنفسها تستسلم الى جمال صوته الخفيض، فقالت له:
"نسير كأصدقاء".

واستسلمت سايرينا، ورأت أنه من السهل عليها أن تدع نفسها تتمتع بدفع قدرته على الاقناع، وهو يدير برفقة دفعة الحديث الذي يناقش الموضوعات التي لا تحتاج الى جدال. وقاما بجولة حول النافورة الواقعة في الناحية الرئيسية لمصنع شكلاته جيرارديلي القديم، الذي تجدد بعد تحويله الى حانوت، وتوقفا أمام مقهى في الهواء الطلق، وتناولوا بعض الفطائر الرقيقة المجلاة الطازجة. ثم تابعا السير بخوار نوافذ الحوانيت الكثيرة التي تقع تحت الجباني المطلة على الميدان. وتحداها باي في أن تقوم بتحديد نوع الحانوت عن طريق الصوت أو الرائحة. ونجحت في محاولتها عندما وقفت أمام محلات الزهور والجلود، وحددت أنواع الآلات التي تقدم في المطاعم المختلفة، ولكنها فشلت تماما إزاء حوانيت المجوهرات والهدايا ومخازن الاستيراد. وتوقفت أمام نافذة حانوت وأطلقت زفرة مبهورة، وقالت:
"حقا بدأت الآن أفقد قدرتي على التخمين. أريدك لاجابة بي لمزيد من الامتحان".

واستجاب لطلبها، وقال وهو غائب عن الوعي:
"لا حاجة بك الى تحديد نوع الحانوت الذي نتطلع اليه. إتنا نقف الآن أمام بيت أزياء يضع لافتة تحمل اسم أزياء راقية تقدمها جاكوبينا. إنني أرى ثوبا في نافذة العرض، وأقسم لك أنه أعد خصيصا لك. هيا بنا".

وفجأة أطبق بذراعه بشدة حول وسطها، وهو يقول لها:
"سندخل الحانوت، لتشاهدي الثوب".

وفي الحال توترت أعصاب سايرينا، وقالت له بحدة:
"أنت تتغاضى عن حقيقة واضحة للعيان وهي أنني امرأة عمية، ولا أستطيع أن أرى الثوب".
فقال بصبر:

"أنا لم أتغاض عن شيء. يا هليكتي العمياء، وفي وسعك أن تمسحي من مظهرك الكبرياء الذي ارتسم على وجهك. أين ذلك الخيال الخلاق الذي كنت تفخرين به في اليوم السابق؟ سأقودك الى داخل الحانوت، وسوف ترين الثوب بيديك".

وانتابها إحساس بالتأنيب، ودوى جرس صغير فوق رأسيهما، عندما اجتازا الباب، وفي الحال بدأت خطوات أقدام تقترب منهما قادمة من نهاية الحانوت، وسأل صوت نسائي:

"هل من خدمة أقدمها؟"

أجاب باي:

"أجل... نود رؤية الثوب الموجود في نافذة العرض؟"

قالت السيدة بأدب:

"إننا لا نبيع هنا ثيابا جاهزة، إنه نموذج نصنع مثله طبقا لمقاييس الزبونة".

قال باي بصوت يتسم بنعومة خلافة:

"دعيني أشرح لك ما أعني. الانسة لين عمياء. وأنا أعجبت بالثوب المعروض في النافذة، وترغب في رؤيته، ولكي تفعل ذلك لابد أن تلمسه، هل هذا ممكن؟"

استجابت المرأة بسرعة وقالت بدفع:

"طبعاً، أنا أسفة. لن يستغرق الأمر سوى بضع دقائق لكي أرفع الثوب من فوق الموديل".

وتناهى الى سمعها صوت صادر عن حركة ثوب عقب حديث المرأة، وشعرت سايرينا بيد باي تضغط على وسطها ليهدئها من روعها، وبعد مضي عدة دقائق اقترب منها خفيف الثوب، وقالت البائعة:

"اليك الثوب يا أنسة لين".

وسألها باي:

"هل يمكنك أن تصفيه لها؟"

فأجابت العاملة:

"بالطبع. الانسة جاكوبينا تطلق عليه اسم الشعلة لأن الوانه الأحمر والذهبي والبرتقالي والأصفر تتماوج بتماوج طبقات الشيفون السباعية الشكل والمعقودة على أطرافه، فتبدو للعيان أشبه بالسنة النار المشتعلة".

وصمتت العاملة قليلا، بينما راحت أصابع سايرينا تتحسس أطراف الطبقات المديدة. وقطعت العاملة الصمت لتواصل الوصف:

"إن قصة الرقبة على شكل سبعة، كما أن الأكمام قد خيكت بالشيفون على شكل سبعة، وزينت الأكتاف والصدر

أيضا بالشفيفون *.

وواصلت أصابع سابرينا اكتشاف باقي أجزاء الثوب، بعدها استطاعت تكوين صورة عنه بمساعدة الوصف الذي أدلت به العاملة، وفي النهاية تمتعت سابرينا:

"ثوب جميل"

وسأل باي العاملة:

"ما هو مقياس الثوب؟"

ولما أخبرته العاملة بالمقياس التفت باي الى سابرينا وسألها:

"هل يناسبك الثوب يا سابرينا؟"

فاومأت سابرينا برأسها وقالت:

"أظن ذلك."

فسأل العاملة:

"هل تتجاوزين القواعد، وتسمحين لها بقياس الثوب؟"

وكانت نبرة صوته بالغة الإقناع لدرجة أن سابرينا كانت واثقة تماما من أن أحدا لا يستطيع أن يرفض طلبه، وتنهدت العاملة بعمق ثم ضحكت وقالت:

"لا أعتقد أن هناك أي مانع، لدينا غرفة لتبديل الثياب تقع في مؤخرة الحانوت، أنسة لين .. يمكنك أن تأتي معي .."

ترددت سابرينا في بادئ الأمر ولكن باي حثها على أن تتقدم وقال لها:

"أذهبي .. واعرفي كيف يبدو الثوب عليك."

وتنهدت ثم قالت:

"لماذا تركتك تدفعني الى مثل هذه المواقف؟"

فقال لها:

"سوف تستمتعين بهذه المواقف كلما غصت الى أعماقها، وأراهنك أنك لم تشتري ثوبا جديدا منذ الحادث."

وعارضته سابرينا معارضة ضعيفة، ثم قالت:

"إنني لا أحتاج شيئا البتة."

فقال باي ساخرا:

"ومتى كان ذلك عذرا قويا تتحسك به المرأة؟ الآن .. توجهي الى الغرفة وحاولي ارتداء الثوب هذا أمر."

قالت:

"سعما وطاعة .. يا سيدي."

ولم تكن سابرينا في حاجة الى أن يجبرها على فعل

شيء، وكانت صورة الثوب التي ارتسمت في عقلها، ولمسه الثمين، قد أثارها مما جعلها لا تحجم عن ارتدائه، ولو لم تستطع أن تعرف النتيجة. ولكنها أسرعت تخلع ثوبها الرياضي، لترتدي الثوب الفاخر. ولم تطلب أي معونة من العاملة الا عندما أرادت جذب السحاب. وألقت براحتها على ذراع العاملة وتحركت بعصبية نحو مدخل الحانوت حيث كان باي في انتظارها. وقالت لاهنة الأنفاس:

"حسنا ..."

وخيم صمت فوق احتمال البشر دام فترة طويلة، مالت خلالها سابرينا برأسها جانبا استعدادا للانصات، فقال باي ببساطة:

"أنت في أجمل صورة يا سابرينا."

وشاركت العاملة في الحديث وقالت:

"يعجز اللسان عن الوصف، أنت تديرين الرؤوس، لا أقول ذلك لأنني أعمل هنا، ولكن الثوب صمم خصيصا لك، الموديل مناسب لك تماما، واللون مذهش للغاية، أنت لديك نفس مقاسات الموديل التي صمم عليها الثوب."

ومرت سابرينا بأصابعها سريعا على فتحة الثوب، ثم سألت وهي تتحسس طيات الشيفون الشفاف:

"هل يمكنك .. هل أنت مستعدة لأن تبيعي هذا الثوب؟"

قالت العاملة:

"ليس المعتاد ..."

وتوقفت قليلا عن مواصلة الحديث، ثم أردفت تقول وعلى شفيتها ابتسامة مستسلمة:

"دعيني أسأل ..."

وعندما رحلت العاملة استدارت سابرينا نحو باي وسألته بقلق:

"هل أنت متأكد أن شكل الثوب جميل؟"

فاشعل سيكارة وسألها:

"هل أنت في حاجة الى مزيد من الاطراء؟"

وأنكرت قائلة:

"لا ..."

ومرت بيدها سريعا على وسطها، وراحت تتأمل بعينين غير مبصرتين الطيات السباعية المتماوجة فوق ذراعها، وواصلت تقول:

"لا ..."

ومرت بيدها سريعا على وسطها، وراحت تتأمل بعينين غير مبصرتين الطيات السباعية المتماوجة فوق ذراعها، وواصلت تقول:

"لا ..."

"لأنني لا أستطيع أن أكون إيجابية".
وانتقل إلى جوارها بخطوات أخيه بخطوات القطة، ورفع
ذقنها بأصابعه وقال لها:
"كوني إيجابية، لأنني أخبرتك بالحقيقة، أنت جميلة في هذا
الثوب".

وتمت في هذه اللحظة أن ترى التعبير المرسوم على
وجهه، في حين أنها لم تشك في الاخلاص في صوته، ولكن
لحساسا خادعا راح يصور لها بأن باي بعيد عنها، وكانت
خصلة من شعرها الأسود تخفي نقطية ارتسمت على جبينها،
فسألها باي قائلا:
"ماذا يضايقك الآن؟"
فقالت:

"أنا... أنا أتساءل متى سأرتدي هذا الثوب؟"
وكانت سابرينا تثير حقيقة في أوانها، ولكن باي أجاب
بنبرة متغاضية:
"ستأتي المناسبة التي تتطلب منك ارتداء الثوب، وحينئذ
ستشعرين بالسعادة لأنك قمت بشرائه".
وتمت قائلة:

"لم أسأل عن ثمنه؟"
وتوقفت عن المضي في الكلام، إذ فطنت لشيء ضايقها
ولكنها استجمعت نفسها وقالت:
"ليس معي نقود الآن، هل تعتقد أنني أستطيع أن أقدم لهم
بعض المال تحت الحساب ليحجزوا لي الثوب، وسوف آتي أنا
وأبي فيما بعد لسداد باقي الثمن؟"
واقترح باي عليها قائلا:
"أستطيع أن أدفع ثمنه".

وعضت سابرينا شفتها السفلى... كانت شغوفة بشراء
الثوب الذي ارتدته، ولكنها غير راغبة في أن تلزم رجلا غريبا
بالدفع... وفي نفس الوقت ليس بغريب، وكان قبولها للعرض
يشوبه التردد فقالت له:

"إذا لم تشعر بالضيق... اكتب لي عنوانك، والمبلغ الذي
دفعته وسوف أطلب من أبي أن يرسل لك الليلة شيكا بالبريد".
"هل ترفضين قبول الثوب هدية مني؟"
وتراجعت سابرينا إلى الوراء وقالت:
"لا أقبله".

ثم هزت رأسها بحزم، واستعدت لمناقشة الموضوع مناقشة
طويلة إذا حاول من جانبها أن يجبرها على قبوله، ونفت دخان
سيكارته في اتجاهها وهو يقول:
"لم أفكر أبدا في أنك ستقبلين".
وبدا صوته غاضبا، ثم استطرد يقول:
"حسنا... سأقدم لك المبلغ دينا عليك".
وتنفست سابرينا الصعداء وقالت:
"أشكرك".

ومن ثم قدم لها اقتراحا... قائلا:
"بدلا من أن يرسل لي أبوك شيكا بالبريد، هل لديك أي مانع
من أن أمر لعندكم في البيت بعد ظهر يوم الجمعة؟"
ولاح على وجهها النجهم وقالت:
"إذا أحببت...".
"بالأكيد هذا ما أريد".

وعادت الفرحة إلى صوته، ومنحته بدورها ابتسامة مرحة.
واقبلت العاملة وأخبرت بها بأن المحل على استعداد لبيع
الثوب، ولم يكن الثمن باهظا كما كانت تتوقع سابرينا،
وعندما ارتدت زياها الرياضي كان باي يقوم بدفع الثمن.
ولما نادرا المتجر أخبرها بنيا بي... انقضت الساعتان
وحان الوقت لأن يعود بها إلى المنزل، واقترح عليها أن
يستقلا سيارة أجرة بدلا من القطار الكهربائي ثم مواصلة السير
على الأقدام، وكانت سابرينا تحذوها الرغبة في أن تطيل
فترة الوقت التي تمضيها خارج البيت، ولكنها أحست برغبته
في عدم التأخير... لذا وافقت على اقتراحه.
وردد باي كلامه ثانية قائلا:

"سأراك في الساعة الثانية من بعد ظهر يوم الجمعة".
وتوقف بعد أن اجتاز الباب الحديدي، فسألته:
"هل تحب أن تدخل معي لتتناول القهوة؟"
ورفض دعوتها ولكنه استدرج قائلا:
"سأحتفظ ببطاقة الدعوة مفتوحة ليوم الجمعة".
ووافقت سابرينا وعلى شفتيها ابتسامة أسفة:
"حسنا... إلى اللقاء يوم الجمعة".

الثاني حيث توجد غرفة الجلوس، وعندما بلغت الغرفة قالت له:

"خذ مكانك حتى أحضر صينية القهوة، الشيك الخاص بثمان الثوب موجود على المنضدة التي تقع أمام الأريكة". ولم يحاول باي أن يقدم لها يد المساعدة وهي تصب القهوة، وتناول الفنجان الذي قدمته له، وأشار بحفيف الوسائد الصغيرة إلى أنه استند بظهره على الكرسي الذي يقع إلى جوار الأريكة، وسألها:

"لديك بيت جميل، هل هذه اللوحات المعلقة على الجدران لك؟"

"أجل".

وأقرت كلامه وهي تبذل جهداً في أن تثبت الفنجان، وبعد ذلك استطردت تقول:

"أبي يحب المناظر الطبيعية، ولهذا اختار هذه اللوحات للبيت، ولعشقه العظيم للبحر كانت اللوحات تعبيراً صادقاً عن مشاهد مختلفة للمحيط".

"هل هذه هي مجموعتك الوحيدة التي بقيت من اللوحات؟" ومالت سابرينا برأسها، وزمت على فكيتها وقالت:

"لا...".

وسألها هل يمكن رؤيتها في وقت آخر؟

وابتلعت سابرينا ريقها، ورفعت رأسها في كبرياء:

"أفضل ألا تراها".

وهز منكبيه باستخفاف:

"لن أصر إذا كنت لا ترغبين، ولكنني أتمنى لو أعرف سبب رفضك في أن أراها، وخاصة أنني رأيت من قبل عدة نماذج من أعمالك، لماذا ترفضين أن أرى بقية أعمالك؟"

وتملطت سابرينا بقلق وهي تقبض على الفنجان، ثم وضعت على المائدة، وهي تحاول أن تتخذ مظهر عدم الاكتراث:

"سأريها لك".

ولم تكن واثقة من أن نبرة صوته المرحمة، أو استدراكها لوعيتها كانا سبباً في تغيير رأيها، إذ وقفت وأدارت رأسها في اتجاه مقعده، وقالت له:

"اللوحة موجودة في الاستوديو بالطابق العلوي".

ووقف باي بدوره وقال لها:

"تقدمي في الطريق".

٤ - العصا العاجية

لمست سابرينا بأصبعها ميناء الساعة، وعرفت أنها تشير إلى الثانية، وتأكدت أن الشيك مازال فوق مائدة القهوة حيث تركه أبوها في الصباح، وانكأت على الوسادة الموضوعة على الأريكة، ودعكت ظهرها لتسترخي عضلاتها المشدودة، وكان من الجنون أن تصل حالتها إلى هذا المدى من الاضطراب والتوتر، بسبب قدوم باي كامبيرون، هكذا سابرينا نفسها عندما دق جرس الباب الأمامي، فهرعت إلى البهو لتسأل بلهفة:

"من بالباب؟"

"باي كامبيرون".

"أنا قادمة حالا".

وكادت سابرينا أن تطير فرحاً، وهي تهبط درجات السلم، وشاعت ابتسامة على وجهها وهي تفتح الباب، قالت له:

"وصلت في الموعد تماماً".

"أحاول دائماً المحافظة على مواعيدي".

وسبح دفاً صوته في الهواء حتى لمس وجهها وهي تفتح البوابة التي راحت تجلجل بصريها قالت له:

"أعددت القهوة... إذا كانت لديك فسحة من الوقت للبقاء معي؟"

فأجاب باي:

"لدي بعض الوقت".

وقادته... وهي تصعد درجات السلم إلى الطابق

.. وصعدت درجات السلم الى الطابق العلوي، وتخبست بيدها الجدار حتى بلغت الباب الثاني. وعبقت رائحة الألوان الزيتية حولها، ودخلت الغرفة ووقفت أمام الحائط ثم قالت:

"لم أعد أستعمل الغرفة، ولا عجب أن شعرت بالضيق منها". ولم يبادر باي بالتعليق على كلامها، ورأى أنه في غنى عن ذلك وكانت تسمع أصواتا هادئة وهو يقوم بجولته في أنحاء الغرفة، ثم يتوقف أحيانا ليلقي بنظرة مليّة الى شيء اختطف بصره، وفي مرات أخرى كانت تسمعه وهو يحرك الأقمشة المرسومة ليبري اللوحات التي تقع وراءها. وقال لها:

"كل هذه اللوحات جميلة للغاية... يا سايرينا". وأدارت رأسها في اتجاه صوته الذي تنهأ اليها عن بعد عدة أقدام من المكان الذي وقفت فيه، وكان قريبا من الباب، ثم استطرد يقول:

"من الموءسف أن تحتفظي بهذه اللوحات مخبأة في هذه الغرفة". وابتلعت القصة التي تعلقت بخلقها، ثم قالت:

"اتفقت مع أبي على أن نبيع هذه اللوحات... يوما ما". "هل سبق لك أن صنعت تماثالا من الصلصال؟"

"لا... فقد اعتدت أن أقوم برسم أي شخص وألف أمامي". فبادر باي يشرح لها قائلا:

"أقصد النحت". وتحرك باي بخطوات هادئة متأنية حتى وقف الى جوارها ولمست يده بخفة ذراعها ليدير جسمها نحو الباب المفتوح. وقالت:

"أجل عندما كنت أقوم بدراسة الوسائل المختلفة للتصوير الفني. ولكن علام سؤالك؟"

"هل يمكنك أن تستأنفي الآن العمل بهذا الأسلوب الذي يناسب فتاة عمياء مثلك؟"

هزت رأسها وقالت:

"لا...".

وسمحت له بأن يقودها الى الردهة وهي شبه غائبة عن الوعي. كان تساؤله غير متوقع فأطلقت العنان لأفكارها، ولكن صوت أغلاقه الباب أعادها الى دنياها.

ولم يتطرق الحديث الى موضوعات اللوحات عندما تركها باي تهبط أمامه درجات السلم، وتعهد أن يتيسح لها

الوقت لتفكر بالامر دون أية محاولة منه للتأثير عليها، وبالرغم من وجود الرغبة الداخلية التي تجعلها ترفضه أية فكرة تدعوها للاشتغال بأي عمل آخر غير ميدان الرسم الذي اختارته، فإن الاقتراح كان بمثابة البذرة التي وجدت التربة الخصبة الصالحة لزراعتها.

قال باي وهو يتناول من يدها فنجانا مملوءا بالقهوة الساخنة:

"أريد أن أسأل، فيما اذا كنت مشغولة مساء الغد مع أبيك؟" وكانت تمسك بفنجان مملوء بالقهوة الى منتصفه، وأرتج في يدها، وأجابته متسائلة باستغراب:

"لا... أبي يمضي ظهر ومساء يوم السبت مع ديبورا. لماذا تسأل؟"

فأجاب باي بنعومة:

"فكرت في أن نتناول العشاء في أي مكان. وستكون فرصة ترتدين فيها ثوبك الجديد".

ورفضت... قائلة باقتضاب مفاجي:

"كلا... أشكرك".

"هل أنت مشغولة؟"

"كلا...".

سألها وهو غير حافل تماما برفضها البارد:

"إذن هل يمكنني أن أسالك لماذا ترفضين تناول العشاء معي؟"

قالت:

"ربما...".

وتوقفت عن مواصلة الحديث وقد رفعت رأسها في كبرياء، ثم وضعت فنجان القهوة فوق الطبق، وأسندت ظهرها الى الاربكة، واستطردت تقول:

"إنني لا أتناول الطعام في مطاعم عامة، حيث ترتطم يداي بالأكواب، ويسقط الطعام مني على الأرض. إنه أمر يدعو للخلل...".

فعاد باي يقول:

"إنني على استعداد لتحمل المغامرة...".

قالت وقد نفذ صبرها:

"هسنا. أما أنا فغير مستعدة...".

وتناولت رشقة من القهوة، وأحست بلسع سخونته

على لسانها . فقال لها بصوت يشوبه المرح :
" ما رأيك في شراء القريدس والكابوريا من حانوت المرفأ ،
والخبز والسلطات بكل أنواعها ، ثم نذهب الى قضاء رحلة
خلوية في مكان ما يقع على شاطئ منتزة الباب الذهبي . "

وترددت سابرينا قليلا ، وبدا الاقتراح مسليا ، ولكنها لم
تكن واثقة من أنها سوف تقبل دعوته . واكتشفت أنها تحبه ،
وزاودها هذا الشعور خلال اللحظات التي كانت تغضب فيها من
كبريائه ، ومع ذلك ساورها الشك في أن الصداقة الدائمة يحكن
أن تنمو وتزدهر بينهما . فسألها باي :

" هل هي دعوة صعبة لا يمكن قبولها ؟ "

وكانت سخريته رقيقة جعلتها تشعر بأنها حمقاء . وبأنها
كانت تبالغ في أهمية الدعوة حتى بدت في صورة أكبر من
حجمها ، فأحمر وجهها وهمست :

" ليس الأمر صعبا . "

وهالت برأسها نحو الفنان الذي وضعته ، لتخفي علامات
الحيرة التي لاحت على وجهها ، ثم استطرذت تقول :

" أقبل دعوته . "

" هل تناسبك الساعة السادسة ، أم أنك تفضلين قدومي في
وقت مبكر ؟ "

" السادسة وقت مناسب . "

ودوى فجأة صوت ارتطام جسم بالأرض ، فرفعت رأسها
فرعة وقالت :

" ما هذا ؟ "

فأجاب باي قائلا :

" أنه شيء صغير اشتريته لأقدمه هدية لك . كنت أنوي
إعطاءه لك في وقت مبكر إلا أن الحديث أنساني . كنت قد
أسندت الهدية على المقعد ، ولكنني دفعتها عفوا فسقطت
على الأرض . اليك الهدية . "

ووضع باي صندوقا طويلا ونحيفا في حجر سابرينا بعد أن
رفعت الفنان ووضعت فوق المنضدة ، واسترخت يداها بلا
حراك فوق البطاقة .

وسألته بقلق :

" لماذا اشتريت لي هدية ؟ "

فقال :

" لأنني رغبت في . . . ولكن أرجوك ألا تعيدها لي لأنها لا

تفيدني أو تفيد أي شخص آخر . وأشك في إعادتها للمتجر . "

وهالت سابرينا برأسها نحوه في تعجب وسألته :

" ما هي الهدية ؟ "

فأجاب باي :

" افتحي الصندوق وسوف تعرفين فخواء بنفسك . "

وبدت آثار الاضطراب العصبي واضحة عليها ، وهي تفض
الشريط الذي يحيط بالصندوق ، ثم وضعتها على الأريكة ،
وأحست بنظراته وهي تراقبها ، فأراد نبض قلبها ولا مست
أصابعها المترددة نسيج الورق الذي أصدر حفيفا رقيقا وهي
تبعده لتعرف ماذا يخفي تحته .

كان الجسم الموضوع في الصندوق مستديرا وصلبا ،
اسطواناني الشكل ، غير محدد المعالم ، وشعرت سابرينا
باستطالته فالتفت يدها حوله لترفعه من الصندوق ، ولكنها
تركته بفتة في مكانه ، وقبضت يدها بشدة وهي تضعها في
حجرها . واعتصر معدتها ألم حمضي عندما سألته في اتهام
قاس :

" هل هي عصا بيضاء ؟ "

فأجاب باي وصورته خال من أي إحساس باللوم أو التقرع :
" أجل ، ولكنني أحب أن تعرفي أنها ليست عصا بيضاء
عادية . "

ونقل الصندوق من فوق حجرها جانبا وأطبقت على شفيتها
بشدة وتشابكت يداها في قبضة مستميتة ، إلا أن أصابع باي
أطبقت على راسغها لتفرق بينهما ، وهو غير مكترث بالمقاومة
التي تبذلها للحيلولة دون نجاح غرضه .

وأطلق سراح إحدى اليدين بينما أمسك الأخرى بمجهود
قليل ، ودفع بمقبض العصا الى راحتها وأجبر أصابعها على
الالتفاف حوله ، وكان السطح الأملس الناعم هو أول انطباع
عن العصا ، ثم لمستها الحساسة جعلتها تشعر بالنقوش التي
زينتها ، واكتشفت أطراف أناملها تصميم هذه النقوش ،
وانقضت بضع دقائق تابعت أصابعها الخطوط الحلزونية
الدقيقة التي امتدت عبر العصا حتى نهاية المقبض . حيث
استطاعت أن تحدد معالم تصميمه الذي أعد على شكل رأس
التنين .

وقال باي موضحا :

" أنها عصا صنعت من العاج ، رأيته في نافذة محل

تحف صيني من عدة أيام.

فقلت سابرينا مترددة:

"إنها جميلة للغاية. لا بد أنها ثمينة، لا أستطيع قبولها."

واسترخت قبضته على يدها، ولم تعد تجبرها على مسك العصا، ولكنها ظلت في موضعها ليضع دقائق حتى يتبين تصرفاتها، واستطردت سابرينا تقول:

"لا بد أنها ثمينة. لا أستطيع قبولها."

وتجاهل اليد الممدودة بالعصا وقال:

"أن التصميم رائع ولكن من الصعب أن نعتبرها قطعة فنية."

أنت ترفضين قبولها لأنها بيضاء..."

قلت:

"لا أستطيع قبولها."

فقال لها باي بهدوء:

"وأنا لا أستطيع أن أعيدها."

فقلت:

"أنا أسفة..."

ودفعت العصا إلى يديه وتركتها، ووجد نفسه مجبرا على

أخذها. وعادت سابرينا تواصل الحديث:

"أعرف أنك كنت تحاول أن توليني كثيرا من اهتمامك ولكنك

تعرف رأيي في موضوع العصا قبل أن تخبريها يا باي. حقا

إن العصا فريدة من نوعها وجميلة، ولكنني لا أستطيع قبولها."

أنا متريحة لعصاي."

"هل هذا جوابك النهائي؟"

"أجل."

أجابت سابرينا بحزم، وأصرت على عدم الاستسلام، أو

حتى الشعور بالذنب لأنها رفضت قبول هديته، فتنهذ باي

قائلا:

"أعتقد أنني إذا واصلت محاولاتي إقناعك بتغيير رأيك،

فإنك ستنقضين موافقتك على الخروج معي في مساء الغد."

وهزت كتفيها وهي تأمل ألا يشعها في موقف حرج، ثم

قالت:

"من المحتمل..."

"إذن سأوفر مناقشتي إلى وقت آخر."

وتردد صوت خفيف الورق، ووضع الغطاء على الصندوق، ثم

واصل باي حديثه محذرا إياها بسخريّة:

"تذكرني... أنني لم أستسلم بعد، وأنها أجلت المعركة."

فأجابت سابرينا بعناد، ولكن أشار ابتسامة ارتسمت

على شفتيها:

"لن أغير رأيي."

"وأنا قبلت التحدي."

واستطاعت أن تسمع إجابته الضاحكة في صوته، واستطرد

يقول:

"هل أستطيع أن أتناول فنجانا آخر من القهوة ما دمنا نواصل

مناقشة الشروط؟"

قالت وهي تقدم له الفنجان والطبق:

"طبعاً..."

ولم يتطرق الحديث بينهما ثانية إلى موضوع العصا

العاجية، ولكن بعد مضي نصف ساعة من رحيل باي كامبيرون

حاولت سابرينا أن تتأكد من أنه حمل معه الصندوق ولم يحاول

نسيانه بطريق الصدفة، ولكنها اكتشفت الطريقة التي خدعها

بها باي في المساء عندما عادت ديبورا، وسألها بصوت

يشوبه الفضول والدهشة:

"متى حصلت على هذه... يا سابرينا؟"

وتوقفت أصابع سابرينا التي كانت تنحس الساعه

واستدارت برأسها في اتجاه صوت ديبورا وسألتها:

"ما هي؟"

"عصا عاجية. المقبض على شكل التنين ونقوش على

الجوانب، عثرت عليها ملقاة على الأرض بجوار المقعد. هل

تخفين عنا شيئا؟"

فقلت سابرينا بنجهم:

"لا... لم أحاول إخفاء شيء."

وهمست ديبورا قائلة:

"إنها لطيفة... أين عثرت عليها؟"

واشترك السيد لين في الحديث قائلا:

"أجل... أين عثرت عليها؟ لم أرها من قبل. هل هي الشيء

الآخر الذي قمت بشرائه في اليوم السابق عندما كنت في

صحبة باي كامبيرون؟"

قالت سابرينا:

"يجب أن تعلم يا أبي بأنني لم أشتري عصا بيضاء، أو بالأحرى

عصا عاجية أنها هدية قدمها لي باي، وطبعاً رفضت قبولها.

وظننت أنه حطها معه."

وسألها ديبورا بنجيب:

"رفضت قبولها؟ لماذا رفضت شيئاً جميلاً كهذا؟"

فقالت سابرينا باستعلاء:

"لأنني لا أريدها."

وغاصت الوسادة الناعمة التي كانت تقع إلى جوارها عندما
لقى أبوها بجسمه الثقيل عليها. ووضعت برقة أصابعها
المتصلبة فوق غلاف الكتاب المغلق. وسألها أبوها بصوت
رفيق:

"ألا تظنين أنك تصرفت بحماقة... يا حبيبتي؟ كلانا يعرف
تماماً أنك رفضت قبول العصا لأنها بيضاء، ولم يكن رفضك
لها لأنها غالية الثمن أو غير جميلة، أنت تعتقدين بأن العصا
البيضاء تعلن للجميع بأنك فتاة عذراء. ولكنك لا تستطيعين
الهروب من هذه الحقيقة برفضك استخدام عصا بيضاء."

فقالت باقتضاب:

"ولكنني لا أريد أن أعلن عن هذه الحقيقة."

وجادلها غرانت لين قائلاً:

"لأبد أن الناس تعرف... ولا أهمية لأي نوع أو لون تكون
عليها عصاك. بحق السماء... ليس هناك أي خجل من أن
يكون الإنسان أعمى."

فقالت سابرينا بسرعة:

"أنا لست خجلة من أمري."

فتنهدها قائلاً:

"أحياناً تتصرفين كما لو كنت خجلة."

فقالت متحدية مرفوعة الرأس:

"أعتقد أنك ترى أنه من المحتمل علي استعمالها."

"أنا أبوك يا سابرينا. نخلصي من هذه الرجفة التي تعترى
كتفيك."

وخففت نبرة التقرير اللطيفة التي شابت صوته من حدة
بروز ذقنها فاستطرد يقول:

"أنت فتاة ناضجة فلا تجبريني أن أشير عليك بما يجب أن
تفعله، فانت قادرة على معرفة التصرف الصحيح والعقل.
وقبول العصا أو رفضها رهن بقرارك وحدك."

ووضعت سابرينا الكتاب على المنضدة، ووقفت قائلة:

"أستاذ في التوجه إلى غرفتي."

وكانت تعرف أنه من الصعب عليها أن تستمر في المناقشة
مع أبيها بالمنطق حيث تحس بالضيق.
وسألته ديبورا بتردد:

"ماذا أفعل بالعصا؟"

فأجاب الأب:

"ضعيها الآن في حامل المظلات، وفي وسع سابرينا أن تقرر
ما تريد أن تفعله قبل أن يأتي باي كامبيرون مساء الغد."
وقبل أن تضع سابرينا قدمها على أول درجة من درجات
السلم إلى الطابق العلوي حيث غرفة نومها، سمعت ديبورا
تسأله:

"باي كامبيرون قادم مساء الغد... لماذا؟"

فأجاب الأب:

"إنه سيصحب سابرينا إلى المرفأ."

فسألته خطيبته بدهشة غير مصدقة:

"هل تعني موعد غرام؟"

"يمكنك أن تطلقني عليه ذلك. اتصل بي هاتفياً بعد ظهر
أمس، وأنا في مكنتي عقب لقائه بسابرينا وسألني إذا كان
لدي أي اعتراض على خروجه معها، ولم أستطع أن أسأله عن
نواياه، لأنني سأبدو له وقحا في سؤالني، في حين كان رقيقاً
في معاملته لها."

"هل أشار إلى العصا؟"

فأجاب:

"كلا... كانت مفاجأة لي."

حسناً... تنفست سابرينا الصعداء، على الأقل لم يكن
لأبيها ضلع في المؤامرة التي دبرها باي كامبيرون. وانتابها
القلق عندما راودتها الرغبة بالتأكد أن أباها لن يدبر شيئاً
آخر لخداعها حتى تحقق رغبته. وكذلك كان عليها أن تسلم
بأن باي لم يجبرها على قبول العصا العاجية، وإنما تركها
ببساطة، ووجودها خلق أزمة ولكن شكراً لحكمة أبيها.

بضع دقائق قبل الساعة السادسة، جلست سابرينا على
الاريكة، وراحت تقرض طرف أظافرها. وللمرة الثانية تأكدت
من وجود سترتها الجلدية ملقاة على ذراع الأريكة، ولكن رنين
جرس الباب أعادها من حالة التأمل إلى دنياها.

وجذبت بسرعة السترة ووضعت محفظة نقودها الصغيرة في
حقيبة يدها، ومررت يدها سريعاً على شعرها الذي

استرسل على كتفها لتثبت خصلاته المتناثرة في الشنيون المعقود فوق رأسها، وسمعت باي كما توقعت، وتمتمت قائلة: "أنا قادمة".

وقبضت يدها على مقبض الباب، ولكنها ترددت، إذ تطلعت عيناها المظلمتان إلى حامل المظلات، واجتدت يدها نحو العصا البلوطية، وظلت ساكنة لبضع دقائق ثم أطلقت زفرة، بعدها أبعدت يدها عنها، ثم راحت تبحث بشغف عن العصا العاجية المنقوشة برؤوس التنين.

وهبطت درجات السلم ببطء، وفتحت الباب الخارجي، ثم أوصدته وراءها، وشدت كتفها وهي تتجه نحو البوابة الحديدية. وباي. الذي استقبلها قائلاً: "استغرق وقتاً طويلاً، حتى بدأت أتساءل عما يعوقك عن القدوم".

وكذبت سابرينا قائلة:

"كان علي أن أضع السترة على كتفي".

وانتظرت منه التعليق على العصا العاجية. ولكن باي قال وهو يفتح لها البوابة الحديدية ويلحق بها عند الرصيف:

"سيارتي تقف عند المنعطف".

ووضع يده على مرفقها وراح يقودها إلى السيارة، وترقبت مفاجأة التعبير عن انتظاره، وهو يساعدها على دخول السيارة، ولما كان باي صامتا لا يتفوه بكلمة بعد أن مضت بهما السيارة، واتجهت إلى الطريق، وجدت نفسها لا تستطيع الاستمرار في السكوت حتى يختار هو اللحظة التي يتكلم فيها، فقالت له بتحد وهي تدير رأسها نحوه:

"حسناً؟"

سأل باي بهدوء:

"حسناً... ماذا؟"

"ألا تقول شيئاً عن العصا؟"

قال بصوت هادي وخفيض:

"ماذا تتوقعين مني أن أقول؟"

فقالت له باتهام:

"أظن أنك تشعر بالغرور بنفسك... إنك تركت العصا عن عمد".

أجاب باي:

"قدمتها هدية لك، وأنا لا أستعيد هداياي، والأمر كان

متروكاً لك لتفعلين بها ما تشائين. ولم أصر أبداً على استعمالك لها. ولن أمنعك من رميها في سلة المهملات".

فقالت له:

"حسناً... لقد قررت استعمالها".

قال لها والسيارة تنحدر عبر التل:

"أنا سعيد، ولكن هل تدع الآن الحديث عن العصا؟"

وتنهدت سابرينا قائلة:

"أجل".

ويبدو أنها كانت ترغب في كل مرة أن تعرف كيف يكون رد الفعل عليه، ولكن باي لم يحقق لها رغبتها. ربما انتابه شعور بالانتصار، أو كان مصيباً بعض الشيء في سلوكه، إلا أنه ظل هادئاً. وفي الواقع كان من الخطأ أن تستسلم سابرينا لمشاعر الحنق ضده. فهي وحدها التي اتخذت قرار استعمال العصا، ولم يكن باي هو صاحب القرار، وهذا ما يعرفه حق المعرفة. وعندما بلغ باي نهاية الطريق المنحدر، استدار بالسيارة مرة أخرى وقال:

"فكرت أن أقف بالسيارة عند ميناء اليخوت، ثم نسير بحذاء البحر حتى دكان مرقأ الصياد، هل تفوافقين؟"

ووافقت سابرينا قائلة:

"حسناً".

وتوقفت السيارة في الموقف وأغلق باي أبوابها ثم شرعاً في السير، وقد تأبط ذراعها اليسرى بيمنائه. وراحت طيور النورس تصرخ في السماء، وهما يعبران فورت ماسون ويقتربان من أرصفة أسطول السمك. وكانت أجنحة طيور البطريق تخفق مع صرخات طيور النورس، وتغيرت رائحة الهواء المعيقة بالملح المتدلي برائحة السمك. وبالرغم من أن هدفهما كان التوقف عند الأكشاك التي تباع الأطعمة البحرية، إلا أنهما قررا مواصلة السير ثم العودة ثانية. وكان الطريق مزدحماً بالسياح الذين راخوا يكتشفون مواقع المنطقة، ويتدافعون بمناكبهم، وهم يستنشقون الهواء كما كان سابرينا وباي يفعلان.

وسمعت دوران فراوج زورق سياحي يشير إلى قيام رحلة بحرية في الميناء، وكانت الكشافات تلقي بأضوائها على مرمى البصر عند.

وعند نهاية الدرابزين، عبرا الشارع إلى صفوف

من الدكاكين، ثم قفلا راجعين حتى بلغا أكشاك الأطعمة البحرية، ورفعت سابرينا وجهها تستقبل النسمة المملحة ثم سألت:

"هل الضباب قادم؟"

أجاب باي:

"بدأ يحجب القناطر العليا لفلدن غيت بريدج وتلال مارين شمال الخليج، وربما تزداد كثافة الضباب هذه الليلة."

فابتسمت سابرينا ابتسامة شيطانية وقالت:

"وفي هذه الحالة سأعود بك الى السيارة."

وضحك باي ضحكة مكتومة، فرفعت رأسها نحوه في استغراب وسألته:

"من أين حصلت على اسم باي؟"

قال مداعبا:

"أعطاني والدي إياه... هل تظنين أنني أطلقته على نفسي؟"

سألته وهي تحاول أن تغير دفة الحديث:

"ربما أنا أطلقته عليك، هل مازال والداك على قيد الحياة؟"

"آخر مرة سمعت أنهما مازالا على قيد الحياة، ويقضيان شهر عسل ثان في أوروبا..."

ثم شد على ذراعها محذرا إياها، وقال:

"عليك بالهبوط درجة هنا..."

وسألته سابرينا مرة أخرى:

"هل باي اسم العائلة؟"

فقال موضحا:

"أتمنى أن يكون ولكنه ليس اسم العائلة إنما اشتقوا هذا الاسم من سان فرانسيسكو باي الذي شاهدته أمي من نافذة المستشفى، فهي مولودة هنا في سان فرانسيسكو، وترعرعت هنا أيضا، وشاهدت الخليج آلاف المرات، وأنت كيف أطلقوا عليك اسم سابرينا؟"

"أمي أحببت موسيقى الاسم أنه رومانسي..."

فقال ساخرا:

"وأنت لست رومانسية..."

فابتسمت بفتور:

"ربما قليلا..."

قال باي ليغير بسهولة دفة الحديث:

"سرنا أكثر من ساعة... هل تشعرين بالجوع؟"

"أوشكت على الجوع..."

"كان يجب أن تقولي ذلك..."

وهزت كتفها باستخفاف، وقالت ضاحكة:

"إن الطعام في الجانب الآخر من الشارع، يكفي أن اتبع الرائحة التي تلتقطها أنفي..."

فسألها:

"هل أنت متأكدة من أنك لا ترغبين في تناول الطعام في أحد المطاعم هنا؟"

أوقفها حتى تمر سيارة كانت تعبر الطريق بهدوء، فقالت له بحزم:

"بالتأكيد..."

وعلى طول صف أكشاك الأطعمة البحرية، راح باي يختار الكابوريا المظهوة، ورغيفا مستديرا من الخبز، وسلطة وكوكتيل القريدس، بينما كانت سابرينا تضغط على معدتها الجائعة التي أثارته رائحة الطعام اللذيذة، وعندما انتهى باي من الشراء، ناولها الحقيبة وسألها أن تنتظر قليلا، حتى يشتري زجاجة من المشروب.

وداعبت دغدغة خفيفة ظهرها، قبل أن تلمس يده ذراعها معلنة عن عودته، من الواضح أن لديها قدرات من تبادل الخواطر مع غيرها حتى تخبرها بميعاد اقتراب باي منها، وسألها:

"هل أنت مستعدة لنزهتنا؟"

وفي هذه اللحظة زارت معدتها تطالب بالطعام، فانفجرا ضاحكين، وتناول حقيبة الطعام منها، وكانت يدها التي تعلقت بذراعه أقرب الى المصاحبة منها الى طلب إرشادها للطريق التي يسيران فيها متجهين الى ميناء اليخوت، والشاطئ المتاخم له.

وعندما بلغا حافة الميناء أحست سابرينا بأن الضباب بدأ يزداد كثافة فقالت بأنين غاضب:

"إنه رذاذ المطر..."

فتنهد باي قائلا:

"على ما يبدو أن السماء مليدة بالغيوم، وكذلك بالضباب..."

فاقتربت سابرينا قائلة:

"في وسعنا أن نحمل الطعام الى المنزل..."

"عندي فكرة أفضل، يخفي مشدود الى رصيف المرقأ..."

يمكننا أن نتناول الطعام على ظهره، فما قولك؟
فايتسمت وقالت:

أعتقد أن هذا المكان أكثر بهجة من المنزل.
هيا بنا.

وانتظرت سابرينا على رصيف المرفأ حتى قام باي بترتيب
الطعام في اليخت، ووقف ومد ذراعيه، وأحاط وسطها
بإحديه، ورفع جسمها ووضعها على ظهر اليخت، وظل ممسكا
بها حتى استقرت قدمها على الأرض، وزادت المطر من
رائحة العطر الذي يستعمله بعد الحلاقة، وأحسست بظهر اليخت
الذي تطأه بقدميها يتحرك حركة منتظمة مع ارتطام مياه
الخليج بجسمه.

قالت سابرينا وقد شابت صوتها نبرة غريبة:

"مضى وقت طويل منذ أن وطأت قدماي سطح الماء، إن
برودته تبعث رعشة خفيفة في ساقي."

وبدا هذا التبرير معقولا... يوضح سر ضعف أطرافها.
والتفت ذراعه بقوة حول وسطها ليقودها إلى أسفل اليخت.
وعندما تأكد من أنها تشبث بشيء ما، هبط درجات السلم
أمامها حتى يلتقطها بذراعيه إذا ما تعثرت قدمها. ولما
استقر بهما المقام في أسفل اليخت أخبرها بمكان المقاعد،
وتركها تأخذ سبيلها إليها، وسألها:

"هل تحبين الإبحار باليخت؟"

وأشار خفيف الحقائق إلى قيامه بإخراج الطعام منها،
استعدادا لتناوله، وقالت في حيرة:

"أحب ذلك... فقد اعتدت الاستمتاع بالرحلات البحرية مع
أبي."

سألها بصوت خفيض حاد مشوب بالاهشة:

"ألم تبصري ثانية منذ الحادث؟"

قالت:

"أوه... عدة مرات، وكان علي أن أمكث في أسفل اليخت لأن
أبي لا يجيد السباحة، وكان يخشى أن أسقط في الماء من
فوق السطح، فيعجز عن إنقاذي. أما أنا فأحب أن أجلس على
متن اليخت حتى أحس بالريح الملمحة تلمس وجهي، والأمواج
تتكسر على مقدمة السفينة. ولما فقدت هذه المتعة لم أعد
راغبة في الخروج ثانية."

"ألا تخشين الآن السقوط في البحر؟"

٦٤

وهزت كتفيها باستخفاف:
لا....

وقدم لها باي كوكتيل القريذس، ثم اتخذ لنفسه مقعدا في
مواجهتها، وراحا يتناولان الطعام ببطء، ويتبادلان الحديث
الذي تركز لفترة حول الرحلات البحرية، ثم تحول إلى
موضوعات أخرى مثيرة، تناولت النشاطات التي يمارسها
الإنسان في وقت الفراغ. رشفت سابرينا قليلا من الشراب
وقالت:

"اعتدت أن أراقب الناس عن كثب، وأقوم بدراسة ملامح
وجوههم. طبعاً كان ذلك له علاقة بعلمي، وجاءت أغلب
شخصياتي الجيدة من وجوه الناس الذين شاهدتهم في
الشارع. إن موقف الإنسان من الحياة مكتوب على وجهه،
النظرة المتجهمة للمنشأ، والنظرة القلقة في وجه السائح،
والسلطة في وجه القائد، والنظرة القلقة في وجه الرجل الذي
ينشد النجاح، والرضا في وجه رب الأسرة، وهناك أشياء
عديدة أخرى ولكن ليس من السهل في أن أعتد على الأصوات
لتحديد ملامح الوجوه، ولكنني واصلت التدريب بالرغم من أن
المهمة كانت شاقة لأدرك تعبيرات الوجوه من أصوات
أصحابها."

وسألها باي متحددا إياها سائرا:

"وماذا عرفت عني؟"

وتراقصت لمحة يأس على شفطيها وقالت:

"حسناً. أنت شخص واثق من نفسك إلى حد الكبرياء، متعلم،
واعتمدت على فرض سلطتك على الآخرين، وتحب أن تتمتع
بالرحلات وخاصة البحرية منها، ولك سجية سريعة، ولكن في
وسعك أن تكون عميق التفكير إذا لزم الأمر."

"وهل تصورت وجهي من خلال صوتي؟"

وأحسنت سابرينا رأسها بسرعة لتتواري عن نظراته، وقالت:

"إنها صورة مشوشة لملامح قوية."

ودفعت بالطبق بعيدا عنها، وقالت:

"الطعام جيد."

وسألها باي بهدوء متجاهلا محاولتها لتغيير دقة الحديث

إلى الطعام:

"لماذا لم تطلبي مني أن تتطلعي إلى وجهي؟"

وتلعنمت وهي تسأل:

«ما... ماذا؟»

فقال موضحاً:

«كما فعلت يوم شراء الثوب.»

ورفرف المرح على حافة صوته، عندما رأى القلق يعتربها، فاندفعت تغير من وضع جلستها على المعقد لأن مجرد التفكير في اكتشاف وجهه بيديها كان كفيلاً بأن يثير الاضطراب في نفسها، وأردف باي يقول:

«يمكنني أن أكمل لك وصف الأجزاء، شعري أخضر، وعيناي أرجوانيتان، وتوجد ندبة قبيحة طويلة على جانبي وجهي أخفياها بلحية كثيفة خضراء اللون، وهناك وشم جمجمة وعظمتان متقاطعتان فوق جبيني، ولن أخبرك بشكل الصورة المنقوشة على صدري.»

وتحولت الابتسامة التي تعلو شفثيها الى ضحكة، عندما انتهى من عرض صورة لملامح وجهه، وأردف يقول:

«ألا تصدقيني؟»

فاستمر في الضحك ثم قالت بعد أن خف ثوبها:

«بالكاد... فإن جارتي أخبرتني من قبل بأن شعرك بني يميل الى الاحمرار، وكذلك عيناك.»

وصحح باي كلامها قائلاً:

«في لون الغرفة كما تقول أمي، كنت على الأقل شقوفة لمعرفة كل شيء عني.»

فقالت وهي تحاول أن تبدو اجابته عابرة:

«بالطبع.»

فسألها:

«وماذا قالت جارتك عني أيضاً؟»

وكانت سابرينا تعزف عن الإشارة الى ماقلته لها بيغي عن رجولته فأجابت مراوغة:

«بيغي لم تحسن وصفك.»

فقال لها متحدياً:

«من الأفضل أن تتبيني الأمر بنفسك.»

وسمعه وهو يرتب الأواني ويعيد الأطباق، وأتاحت لها تحركات باي الفرصة للتفكير في العثور على عذر يساعدها على تجنب مهمة اكتشاف ملامحه التي دعاها اليها، وبذلت ما في وسعها، ولكن جهودها باءت بالفشل في العثور على هذا العذر بحيث لا يكشف عن شعورها بالخوف من هذه الألفة

التي أبداه باي.

وعندما عاد لم يجلس في مقعده الأول، وإنما اختار مقعداً الى جوارها، وقبل أن تبدي أدنى معارضة، أخذ معصمها بيدين رقيقتين لكنهما حازمتان، ورفع راحتها الى وجهه، وزجرها برقة وهي تحاول أن تنأى بهما بعيداً، وقال لها:

«لا حاجة بك للشعور بالخجل وتأنيب الضمير، إن الأمر لا يدعو الى الحرج.»

وشعرت بالمعالم الصلبة لفكه القوي تحت يدها التي راح يضغط عليها وهي تسير على جانبي وجهه، وأطلق سراح يدها عندما تلاشت مقاومتها. وكان دفء حرارة جسمه يخفف من برودة أصابعها، فبدأت سابرينا رحلة اكتشاف لملامح وجهه وحدها.

وانطلاقاً من خط الفك، أخذت أطراف أناملها تسري على خديه حتى وصلت الى عظمتي الوجنتين، ثم فوق رموشه المعقوفة. وبعد ذلك تحسست حاجبيه الكثيفين وجبينه العريض، وشعرت بشعره الكثيف المتماوج قليلاً الذي تشبع بندى الضباب ورذاذ المطر، ووجدت أشف الروماني محدب الشكل يتناسب مع كبريائه، وبدأ على شففيه الحرم الرقيق، وعندما انتهت من فحص زاوية ذقنه القوية، ألقت يديها جانباً.

وفكرت سابرينا باقتناع في أن وجهه حقاً وجه رجل... ولا جدال في ذلك. ولا يمكن أن يصفه أحد بأنه مليح الوجه فقط، وإنما بالتأكيد مثير أيضاً، يجذب اليه الأبصار، ويدير الرؤوس عندما يدخل الى أي غرفة. وسألها باي بصوت رقيق ناعم:

«ما الحكم؟»

وحسنت أن رضاها قد انعكس في التعبير الذي ارتسم على ملامحها، وأشاحت برأسها بعيداً عن نظراته التي شعرت بها مركزة على وجهها.

أجابت باستخفاف كاذب:

«الحكم هو... أنني أحب وجهك.»

ووضع أحد أصابعه تحت ذقنها، وأدار رأسها نحوه وهمس برقة:

«وأنا أحب وجهك... أيضاً.»

ومن ثم أمسك باي يدها بقبضته وقال لها:

«هيا بنا نذهب الى أحد المطاعم لتتناول فنجاناً من القهوة.»

ووافقت سابرينا بترحاب على مغادرة اليخت، لسبب ما أحسّت أن الأرضية التي تقف عليها غير مستقرة تحت قدميها، وهي ترغب في العثور على أرض صلبة لتشعر فوقها بالأطمئنان.

وكانت الساعة تجاوزت العاشرة ببضع دقائق، عندما أوقف باي سيارته أمام منزلها، وسار معها حتى البوابة الحديدية، فالتفتت نحوه سابرينا وقالت بتردد:

"أمضيت وقت طيباً معك... أشكرك".

فقال باي:

"وأنا أيضاً، ومن ثم لا حاجة بك لتقديم اعتنانك. سأقضي الأسبوع القادم كله في لوس أنجلوس، وعند عودتي سأصل بك هاتفياً".

قالت:

"ليس هذا ضرورياً".

وكانت سابرينا تتمنى ألا يفكر باي في أنه قد أصبح واقعاً تحت أي التزام يجبره على رؤيتها مرة ثانية.

قال:

"أعرف أنه ضروري. وداعاً يا سابرينا. سأنتظر في السيارة حتى أرى النور في غرفتك، وتأكدي من إطفائه عندما تذهبين إلى النوم. هل يمكنك أن تفعلي ذلك؟"

وهزت رأسها وقالت:

"أجل. وداعاً... يا باي".

وعبرت الباب الحديدي، وأوصدته وراءها... وسارت نحو باب البيت... وهي تشعر بنظرات عينيه تتبعها... هاتان العينان البنيتان في لون القرقة التي تنمشي مع لون شعره البني.

٥ - رحلة عمل

توجهت سابرينا إلى جهاز الاستريو وأدارت بعصبية المؤشر لتوقفه. لم تجد في الأنغام الموسيقية ما يرضيها، بل لم تجد أدنى رغبة في الطهو أو التنظيف... حتى لو احتاج الأمر إلى ذلك. وسئمت كذلك القراءة لأنها تحتاج إلى تركيز كثير منها، في حين أنها كانت شاردة الذهن وقلقة.

وهتف بها صوت داخلي يلقي اللوم على باي كاميرون لأنه كان السبب الحقيقي وراء هذه الصورة التي ألت إليها، ولم تعرف لماذا أثرت عليها رحلة العمل التي قام بها إلى لوس أنجلوس كل هذا التأثير. كانت نوبات القلق تنشبها كثيراً من قبل وحتى قبيل الحادث، لكنها كانت تعرف كيف تتغلب عليها بتكريس كل طاقتها للرسم، أما الآن... فليس لديها أي متنافس تلجأ إليه.

"هل حاولت تشكيل أي تمثال بالنحت؟"

خيل لها أن صوت باي يتحدث بوضوح إلى عقلها، كما لو كان يقف إلى جوارها. وأحسّت أن البذرة التي غرسها منذ عدة أيام بدأت تؤتي ثمارها. وقبل أن تغير رأيها اتصلت بالهاتف بمخزن الأدوات الفنية وطلبت سام كارليل وتقلصت أصابعها بعصبية على حبل الهاتف، وبعد عدة دقائق سمعت صوتاً فأردفت تقول:

"أهلاً سام... أنا سابرينا".

فصاح بدهشة تخالجه السعادة:

"سابرينا... كيف حالك؟"

ثم تغيرت نبرة صوته في الحال وقال:
"اسمعي... أنا آسف. مضت مدة طويلة لم اتصل بك هاتفياً،
أو أتوقف للسؤال عنك، ولكن على أي الأحوال..."
فقاطعتة بسرعة وقالت:

"كل شيء على ما يرام. في الواقع أنني أطلب منك أن تؤدي
لي خدمة..."

"أطلبني ما تشائين، وسوف ألبى طلبك..."
"هل في وسعك أن تبعث لي رسولا معه صلصال وأدوات نحت
زهيدة الثمن؟"

فسألها مشدوها:
"هل عزميت على ممارسة فن النحت؟"

قالت سابرينا:
"سأبذل المحاولة. ولهذا أطلب منك أن ترسل لي الأدوات
الضرورية حتى أرى ما إذا كانت المحاولة تستحق الاستمرار،
أو أنقض يدي منها..."

فقال سام:
"أعتقد أنها فكرة رائعة... ضربة عبقرية..."
"هل يمكنك إرسال الأدوات مع رسول؟"
"أتخشى أن آتي بنفسى لو سمح لي العمل، ولكن عندي موقف
سيفادر المخزن بعد عشر دقائق، وسيكون بيتك هو أول محطة
له..."

وشاعت البهجة في وجهها وهي تقول:
"شكرا لك يا سام..."

قال وهو لا يعير اهتماما لآيات الشكر التي طوقت عنقه
بها:

"اسمعي... أنا آسف لأنني لم أقدم لك اقتراحا كهذا من
قبل. سوف تصلك الأدوات حالا. سوف نلتقي قريبا. أليس
كذلك؟"

فقالت سابرينا:
"أجل يا سام... قريبا..."

وبعد مضي نصف ساعة وصلت الأدوات، وكانت سابرينا قد
نظفت مكاناً صغيراً في الاستديو حيث تستطيع ممارسة
عملها، أما في المساء فستعهد إلى أبيها برفع بقية الأدوات
الثقيلة. وكان الرسول قد تطوع بحمل الطرود إلى المكان الذي
ترغب سابرينا فيه حتى يوفر عليها مجهود نقلها إلى

الاستوديو. تراقصت رعشة من الاضطراب في سلسلتها
الفقرية وكان قميصها الفضفاض القديم معلقا وراء الباب،
تنبعث منه رائحة الألوان الزيتية وسوائل التنظيف، حيث
كانت ترشديه فوق ثيابها أثناء الرسم لحمايتها من الاتساخ،
فارتدته ثم سارت نحو مائدة العمل وهي تحدث نفسها قائلة:
قريباً سوف يمحو عبير الصلصال هذه الرائحة.

وانهمكت في العمل، وتلاشت من حسابها مشكلة الزمن،
وواصلت تشكيل تماثيل بسيطة، واتخذت من الفاكهة التي
حملتها معها من المطبخ نماذج راحت تتلمسها بيدها.
وأستفاقت من استغراقها عندما نادى عليها أبوها للمرة
الثانية.

فأجابت:
"أنا فوق... في الاستوديو..."

وتراجعت خطواتها، وهي تمسح يديها في قطعة القماش،
وسمعت أقداما تصعد الدرجات بسرعة، فالتفتت نحو الباب
ووجهها يكسوه الخوف والاضطراب. وعندما رآها أبوها تنهد
ثم قال:

"كنت أجن. لماذا لم تخبرني على نذائي؟ ماذا تفعلين هنا؟"
أجابت سابرينا برفقة:
"أعمل..."

وخيم صمت مطبق أقصحه لسان حاله عن أن التفسير ليس
ضروريا، بعد أن رأى بنفسه. وانتظرت سابرينا بضع ثوان
ليدلي بالتعليق على أعمالها الفنية، ولما طال انتظارها سألته
وهي لاهثة الأنفاس:

"ما رأيك؟"
فقال لها:

"لا كلام عندي. كيف...؟ حتى..."
وانفجر ضاحكا عندما تعثرت أسئلته على لسانه، فألقي
ذراعه على كتفيها وقبلها قبلة عفيفة، واسترسل يقول:

"أنت فتاة رائعة... وأنا فخور بك..."
واضطرب صوته مشوبا بحرارة عواطفه:

فقالت بشوق:
"طبعا... ولكن ما رأيك؟"

فابتسم أبوها قائلا:
"إذا كنت تسألين عما إذا كان في وسعي أن أفرق بين

التفاح والاحاص، قرآن جوابي: نعم بالتأكيد أستطيع، وفي وسعي أيضا أن أرى عنقود العنب الذي تقومين بتشكيله الآن ولا حاجة بي إلى أن أقول أنه يصعب على المرء أن يميز بين الطبيعة الحية، والطبيعة الصامتة.

"هل تعني حقا يا أبي ما تقول؟"

قال مؤكدا على كلامه:

"أعني ما أقول، والآن أسالك: متى قررت القيام بكل هذا؟ لم تشير لي بكلمة واحدة عنه؟ متى حصلت على كل هذه الأدوات؟"

"في الأسبوع الماضي سألتني باي إذا كان بوسعي استعمال الصلصال في تشكيل تماثيل، وفكرت مليا في اقتراحه، واتخذت قرارا في هذا الصباح فقط لكي أبدأ المحاولة، فطلبت من سام في مخزن الأدوات الفنية، أن يبعث إلي بأدوات نحت مع رسوم."

"هذا الصباح؟ أنت، تعملين منذ ذلك الوقت؟ لابد أنك مجهدة؟"

"مجهدة؟"

وأدارت وجهها نحوه، وعلى شفيتها ابتسامة عريضة، وأردفت تقول:

"كلا يا أبي... أحس بأنني مازلت على قيد الحياة. هذه أول مرة أعمل فيها فترة طويلة."

وراء الصمت لفترة فالتقط أبوها نفسا عميقا وقال:

"في الواقع، أنت استغرقت في العمل يوما كاملا، ولا معنى لبذل مزيد من الجهد، وبخاصة أنك نسيت تناول وجبة العشاء."

قالت مستسلمة:

"أنا طوع أمرك!"

وامضت سابرينا كل دقيقة من عمرها على مدى أسبوع في حجرة الاستوديو، وكانت النتائج النهائية أقرب إلى الفشل منها إلى النجاح، ولم تأبه كثيرا عندما أصر أبوها على أنها لن تتوقع الكمال وهي في بداية الطريق، ولكن سابرينا كانت تبذل كل جهد لكي تحقق الكمال مهما كلفها الأمر، ولا شيء أقل من الكمال يرضيها.

وفي صباح يوم الأحد أمرها أبوها أن تغادر الاستوديو قائلاً:

"بالله عليك استريح يا سابرينا، فقد أرهقت نفسك طوال الأيام الستة الماضية."

وسقطت مستسلمة لمنطقه، وشعرت أصابعها بالألم من الصلصال الذي غطى راحتها، وأدركت أن أباه على حق. وقال لها:

"لدي عمل أريد أنجازه في الزورق. لماذا لا تأتين معي اليوم ستكون ديبورا مشغولة في المطبخ، وأنا واثق أنك ستسليين إلى هنا عقب رحيلي إذا لم يكن لديك أي شيء تقومين به."

وضحكت سابرينا برقة وقالت:

"لن أفعل ذلك."

فقال ساخرا:

"أوه... أعلم ذلك إذن ستأتين معي؟"

قالت بعتاب:

"أعتقد أنه أمر رهيب إذا كنت لاثق بي... أنا ابنتك. وخير لي أن أذهب معك مادمت ترى أنني لم أعد موضع ثقتك."

أضاف أبوها قائلا:

"البسي ثيابا كافية لأن هناك نسمة شديدة تهب من المحيط الهادي، واختاري منها ما يتحمل الانساخ، لأنني فكرت في أن أعهد إليك بتنظيف قاع الزورق."

وهزت سابرينا رأسها وقالت:

"لهذا السبب تريد مني أن أذهب معك."

فقال لها وهو يتوجه إلى درجات السلم:

"ألا تظنين أنني حقا أفي صحبتك؟"

واكتشفت سابرينا أن الريح كانت قارسة، وضباب الصباح لم ينقشع بعد، لذلك فشلت حرارة الشمس في تدفئة الجو.

وعندما هبطت إلى قاع الزورق لم تشعر بتلك النسمة الباردة، قيدا العرق يتصبب فوق جبينها... مسحته وبدأت تطوي

أكمام بنطال العمل الأزرق الذي كانت ترتديه، وشرعت في تنظيف أرضية الزورق، وتعلقت قطرات من العرق بالياقة

الصوفية لسرتها التي أخذت تدغدغ جلد ظهرها الحساس ولم تستطع أن تحكه إذ كانت يداها تغطيها رغوة الصابون، وما

أن انتهت من أداء مهمتها حتى قررت أن تنادي أباه ليتناول فنجانا من القهوة، وأدركت من الأصوات التي تنهت إليها

أنه يتحدث مع أحد هواة الرحلات البحرية.

وفكرت أن تحمل دورق القهوة وبعض الفناجين إلى

وتناول منها العلبتين وساعدها على الوصول الى سطح الزورق. فقال باي:

"هذه الأنسة سابرينا لين... ابنة السيد غرانت لين، وهذا أخي الصديق العجوز الدكتور جو بارونلغ."

قال صوت أجش في لهجة ساخرة:

"أنا معروف لدى جميع مرضاي باسم جو أو الدكتور جو، وسرت رعدة باردة عبر سلسلتها الفقرية، فقالت:

"كيف حالك؟"

وكانت تحيتها جافة، منذ أن اعتادت أن تنأى عن كل العاملين في مجال الطب، منذ اللحظة التي وقعت فيها الحادث، ولقاءاتها المتتالية لسلسلة الأطباء. وأفاقت على صوت الدكتور وهو يقول:

"جوه... اسمي جو، أخبرني والدك أنك عمياء منذ عام واحد، أرى أن أمورك تسير على ما يرام."

فقالت له:

"ليس أمامي أي اختيار، هل هناك سبيل آخر؟"

"بالطبع يوجد هناك سبيل آخر، وهو أن تسوء بك الحال."

كانت إجابته هراء، بعثت ابتسامة شاحبة على شفثيها، وكانت دائما تتوقع من الطبيب أن يكون - حتى في بيته - حازما... غير عاطفي... يؤدي واجب الاحسان لمرضيه، ولكن هذا الطبيب يبدو مغامرا تماما فقالت له:

"كنت أندفع الى الأثاث والمباني في أول الأمر."

"وهل تستعملين عصا أو تستخدمين كلبا يكون بمثابة عينك المبصرة؟"

ولم يتح لها الفرصة للإجابة على سؤاله، وواصل كلامه:

"أسمع أن العميان يستخدمون كلاب البودل مثلما يفعل رعاة الغنم وتكون هذه الكلاب عيونهم المبصرة. هل تتخيلين شكل كلب البودل يتسريحة بومبادور وخصلة من الزغب تعلو ذيله، يقود رجلا أعشى؟ إن منظر الرجل يبدو لي في قمة السخرية على حين لا أشعر بأي امتنان لذكاء الكلب."

وضحكت سابرينا من تلك الصورة التي رسمها الطبيب في ذهنها، فقد كان تصويره لا يدعو الى الاحترام بقدر ما كان يبعث على الضحك مما بدد القلق الذي كان يسيطر عليها. ولاقى ضحكها ارتياحا لدى الجميع مما جعل الحديث يتدفق طبعيا بينهم. وهيمن الدكتور جو على دفقة الحديث

سطح الزورق لتقدم لهم القهوة، ولكنها سمعت خطوات هادئة لشخص ينتعل حذاء مطاطيا وهي تقترب للهبوط على الدرجات المؤدية الى قاع الزورق، فأسرعت سابرينا تزيل الصابون الذي يكسو الأرضية، وعندما بدأ يهبط السلم توقفت ثم التفتت في اتجاه الخطوات القادمة:

"فكرت في أن أقدم لكم القهوة على سطح الزورق يا أبي، حالما أنتهي من التنظيف هنا. وسوف أحضر معي فناجين إضافية إذا أحب الآخرون مشاركتنا في احتسائها."

"هذا اقتراح جميل."

"باي عدت ثانية."

وأطلقت صرخة السرور والفرح بلا وعي من شفثيها، فقال لها باي:

"عدت متأخرا بعد ظهر أمس، وتوقعت رؤيتك هنا اليوم مع أبيك، ولكنني لم أتصور أنه سيجعل منك جارية تقوم بتنظيف أرضية الزورق."

فابتسمت سابرينا وقالت:

"هل أمضيت رحلة طيبة؟"

"نعم... قمت بمراجعة حسابات بعض العقارات المستثمرة، وتفقدت بعض الأراضي التي أرغب في شرائها. ثم التقيت بصديق قديم كان زهيدا لي في الجامعة وتركته يتحدث مع أبيك على سطح الزورق. لم لا تأتين لمقابلته؟"

وكانت تتوقع أن يكون هذا الصديق امرأة، وخشيت أن ينعكس شعورها في تعبيرات وجهها، وودت من أعماقها ألا يحدث ذلك حتى لا يشعر باي بأنها غيور. أنهما مجرد صديقين. وأخيرا قالت:

"سأنتهي خلال دقيقة، إذا كنت تحب أن تتناول القهوة، أحمل معك الدورق، وهناك فناجين أخرى في الخزانة خذها معك. وأنا سأحمل معي علبتي السكر والحليب."

ووافق باي قائلا:

"حسنًا."

وبعد مضي دقائق انضمت سابرينا الى الأشخاص الآخرين المجتمعين على سطح الزورق، وعندما رفعت الريح خصلات شعرها من فوق جبينها، أدارت وجهها لتستقبل لفة الهواء البارد، فقال لها أبوها:

"سابرينا... دعيني أتناول منك هاتين العلبتين."

بموضوعاته المتعددة، ألا أن الحديث كان يتركز في بعض الأحيان حول موضوع فقد بصرها، والضرر الذي لحق بالاعصاب البصرية نتيجة لأصابة رأسها. وأدركت فجأة أن هذه التساؤلات لم تكن عرضية وإنما كانت موجهة اليها بفكرة مدروسة، وقاطعت الطبيب في منتصف حديثه قالت:
"انتظر دقيقة. أخبرني بالضبط أي نوع من الأطباء أنت."
قال:

"واحد ممتاز. جراح متخصص."
بعدها رفعت رأسها مستوقفة وسألته بنبرة اتهام:
"من أي نوع؟ انتظر... دعني أتكهن. أنت جراح عيون."
قال جو براوننف بلا أدنى حرج:
"تقديرك في محله، وهذا دليل على أنك فتاة شديدة الانتباه."

"علام كل هذه الأسئلة، هل هو امتحان خبيث؟"
فقال ببساطة:
"أجل."

عندئذ تملها الغضب، فاستدارت تجاه المقعد الذي يجلس عليه باي وقالت:
"هل طرحت الموضوع عليه، اليس كذلك يا باي كامبيرون؟ وأنت يا أبي لا بد أنك طرقت الموضوع معه أيضا؟"
فأجاب أبوها بصوت يشوبه الندم:
"كانت فكرتي أنا في أخفاء سبب قدوم الدكتور جو لرؤيتك. باي قام بالاتصال به فقط، أما باقي الفكرة فكانت من عندي."

قالت سايرينا:

"ولكنك ادعيت يا باي أنه زميل دراسة قديم!"
فقال الدكتور:

"أجل أنها الحقيقة. الحقيقة أيضا أننا التقينا مصادفة في لوس انجيلوس ولم تكن لديه أدنى فكرة بأنني عدت إلى هناك منذ غادرت المدينة لأقضي عدة سنوات في الساحل الشرقي. وفي لقائنا نوه عنك في الحديث الذي دار بيننا، وبخكم المهنة... تأقت نفسي إلى رؤياك."
وقال باي بهدوء:

"أنا أسف يا سايرينا... أنني أعرف مسبقا أنك سوف تضيقين ذرعا عندما تكتشفين الأمر..."

"إذن... لماذا حاولت خداعي؟"
"شعرت أن من واجبي احترام رغبات والدك، وكان هناك احتمال قوي بأنك لن تكتشفي جلية الأمر، إذا لم يكن الدكتور جو على يقين من وجود أمل أن تستعيد بصرك."
فسألت:

"هل تعتقد يا دكتور أن هناك أي أمل؟"
ورفعت رأسها في خيلاء نحو الطبيب، في محاولة لأخفاء أي ردة فعل لقراره. قال الطبيب بصديق وأمانة:
"أحب إجراء بعض الفحوص في إحدى المستشفيات قبل أن أصدر قرارى الأخير. وأعتقد أنه توجد هناك فرصة ضئيلة تبلغ نسبته عشرة في المائة... تتيج لنا إجراء عملية..."
فقالت سايرينا متحدية:

"أدرك ما تقول... فأنت تظن أن هذا ما حدث معي تماما..."
قال:

"لا أعرف تماما ولكن من واجبنا ألا نتجاوز هذا الاحتمال، وللتأكد ستدخلين المستشفى لإجراء بعض الفحوصات، أنا لأحب أن أبعث أمالا كاذبة في نفسك يا سايرينا، وإنما توجد أمامك فرصة ضئيلة لاستعادة بصرك، والقرار متروك بين يديك..."

لم تتقلب رائحة الزهور التي حملها أبوها معه على رائحة العقاقير الطبية المنتشرة في أرجاء المستشفى.

وانتهت ساعات الزيارة، وأطفئت الأنوار، وازداد عالمها المظلم سوادا في هذا الليلة، وشعرت أنها وحيدة... فريسة للالام. كانت تخشى أن تتعلق بأمل أن يأتي الغد ويخبرها بنجاح الفحوص، ولكن لماذا كل هذا الخوف وقد جاءت إلى هنا بمحض إرادتها لإجرائها.

وأطبقت سايرينا أصابعها حتى استعانت إلى قبضة استكانت إلى جوارها. ولعننت باي لمقابلته صديقة الطبيب. لقد رضيت بالأمر الواقع... وبدأت تعيش حياتها الجديدة.

ومنذ أن كان باي هو المسؤول عن وجودها جزئيا في المستشفى، فإن أقل ما كانت تتوقعه منه أن يأتي لزيارتها، ولكنه لم يفعل، واكتفى بارسال رسالة شفوية مع الدكتور

جاء، متمنيا لها حظا سعيدا، ثم سار في سبيله لحظة أن سمحوا لها بدخول المستشفى.

واعترى جسمها الاضطراب، وأدركت أنها خائفة. وودت أن تصرخ، وأن تبكي، ولكن الوضع انفرج قليلا، ودخل شخص إلى الغرفة، أخذت خطواته تقترب من فراشها، وخالجها شعور بأن هذا الشخص ليس بالمرضة، وتأكد لها ذلك عندما نفذت رائحة عطر تابت بعد الحلاقة إلى أنفها. وسألها باي برقة:

"هل أنت مستيقظة؟"

فهمت سايرينا قائلة:

"أجل..."

ورفعت جذعها ليتخذوا وضعاً قائما، وهي تحاول تسوية ثوبها الرقيق على جسمها، وأردفت تقول:

"ساعات الزيارة انتهت، وليس مقروضا أن تكون هنا الآن."

فايتسم قائلا:

"صحيح وإذا شوهدت هنا فسيطلبون مني الرحيل، كيف هالك الآن؟"

قالت كاذبة:

"بخير..."

وشعرت بثقل جسمه على جافة الفراش، واستطردت تقول:

"خيال إلى أن الدكتور جو أشار عليك بالذهاب إلى حفل أو أي شيء من هذا القبيل."

فقال باي:

"ذهبت... ولكنني تسلفت لأراك، هل هذا يرضيك؟"

فأجابت سايرينا:

"يرضي... ما دام يرضي السيدة التي كنت بصحبته."

"وما الذي يدفعك إلى الاعتقاد بأنني كنت بصحبة إحدى السيدات؟ بالتأكيد كنت أتمنى ذلك."

"ولكنك لم تفعل... لأنك لو كنت مع إحدى السيدات لتعطرت بعطر باريسي باهظ الثمن..." وكانت تحاول بحديثها أخفاء مخاوفها عنه.

فقال ساخرا:

"أه... من المخبرة العمياء! "

وهزت كتفها باستخفاف:

"وإذا سلمنا مبدئيا بأنك كنت في حفل... فمن المنطق أنك"

سحرت إحدى الجميلات."

"الآن أخطأت الهدف!"

فجالت سايرينا برأسها جانبا وسألته بسخرية:

"لماذا؟"

فأجاب باي بخفة:

"لأنني أركز كل سحري على فتاة عمياء أعرفها... إنسانة جذابة للغاية..."

فشعرت سايرينا بغصة في حلقها وهي تقول:

"أجد صعوبة في أن أعتقد..."

وأحست بيده الدافئة فوق يديها وقال:

"يذاك بأردتان يا سايرينا... ما الأمر؟"

وبعث اتهامه رعشة في جسمها، وتنهدت باضطراب، ثم قالت:

"أنا خائفة يا باي... من القدر..."

ولم يتفوه بكلمة لمدة دقيقة، وشعرت به يغير من ثقله على الفراش، والتفت ذراعه حول كتفها، وجذبها إلى صدره، وراح يهدد رأسها، وتبتم بهدوء:

"دعينا نفكر مليا... مخاوفك ليست بسبب الفحوص التي يجريها الدكتور جو، وإنما هناك أمران أولهما خوفك من أن تسلميني بصرك، والثاني خوفك من عدم استعادته، اليس هذا صحيحا؟"

وهزت سايرينا رأسها بالإيجاب، وشعرت بالسعادة وهي تستمع إلى دقات قلبه المنتظمة تحت رأسها، والطمأنينة في كنف ذراعيه القويين واسترسل قائلاً:

"أعرف أنك لا تخافين من عودة الابصار إليك، لأن إيبصارك سيسعد الجميع. بقي الأمر الثاني..."

فقاطعته وهي مترددة:

"أنا... أنا تقبلت وضعي في أن أكون عمياء، وبدأت أمارس تشكيل التماثيل بالصلصال، هل أخبرتك بذلك؟ أنا جبانة... ليتني ما رضخت لهذه الفحوص... ليتني ما قابلت الدكتور جو... لا أريد أن أعاني مرة ثانية الآلام التي تذكرني بأنني سأبقى عمياء إلى الأبد..."

فقال باي ساخرا:

"أين تلك الفتاة الثائرة... أنت لست جبانة يا سايرينا... لأن الجبان لا يأتي إلى المستشفى، ولا يشترك في المغامرة الصغيرة التي يقدم عليها جو... أنت لن تنفجري بالكساء،"

أو تلطمي صدرك إذا جاءت الفحوص سلبية، أما الفتاة النائرة التي أعرفها فستنهز كتفها باستخفاف وتقول: حسنا... أنه قدري..

وشعرت به يبتسم وهو يردد عبارته، ثم استرسل يقول: "يمكننا أن نستعير قولاً مأثوراً يا سابرينا يقول: لن تزيد حالتك سوءاً وما من شيء تخسرينه.."

فتنهدت قائلة:

"هذا ما حاولت ترديده لنفسى.."

"دورك أن تكفي عن الكلام، وتستعدي لمواجهة الأمر الواقع.."

ولم يكن يحتاج إلى جواب، لأنه أمسك بيديها عدة دقائق، فسرت قوة عضلاته إلى ساعديها لتطارد مخاوفها المفرطة، وأخيراً سألتها:

"هل أنت بخير الآن؟"

وهزت رأسها، ولمست ذقنها صدره، وقالت مبتسمة: "أجل.."

فقال برقة:

"خير لي أن أذهب قبل أن تأتي الممرضة، ونظن بنا الظنون" وأسد رأسها على الوسادة، وقام بتسوية الغطاء حول صدرها، وعندما انتصب بقماته، بحثت سابرينا عن ذراعه وهمست قائلة:

"شكراً لمجيتك يا باي.."

"لا تشكريني على أمر أحب أن أقوم به.. ليلة طيبة يا سابرينا، سأراك ثانية.."

"ليلة طيبة يا باي.."

وتناهى إلى سمعها صوت خطواته الرقيقة وهي تبتعد، وشعرت بتيار الهواء ينساب عندما فتح الباب، وأغلقه وراءه..

* *

لاح لها فراش المستشفى وكأنه وسادة مملوءة بالدبابيس تفرز جلدها وهي تتقلب فوقها، وكانت تعلم أن الانتظار هو الذي يؤرق مضجعها.. فقد مضى يومان وما زال الدكتور جو ينتظر نتيجة الفحوص، ولكن التجهم الذي بدا في صوته بالأمس أكد لها أن النتائج غير مشجعة..

٨٠

سار أبوها في غرفتها، وكان القلق بادياً في خطواته، وفجأة توقف عن المشي واستدار نحوها، وبعد دقيقة هبت نسمة من الممر فمست وجنتيها فأتجهت برأسها نحو الباب:

"صباح الخير يا سابرينا... صباح الخير ياسيد لين.."

حياتها الدكتور جو وهو يدخل الغرفة، وكان صوته صافياً عندما استرسل يقول:

"إنه طقس سيء اليوم، ولكنكم يا معشر سان فرانيسكو اعتدتم على ضبابه.."

ولكن أباها تجاوز مزاحه وسأله:

"هل وصلت نتيجة الفحوص؟"

"أجل.."

ورفعت سابرينا رأسها استعداداً لسماع النتيجة، ونادت بلا وعي قائلة:

"باي... هل أنت هنا؟"

فأجاب باي بهدوء:

"مرحباً... سابرينا.."

فقال الدكتور بعد لحظة ضاحكاً:

"لا تخبرني بأن المريضة لديها ملكة تبادل الخواطر مع الآخرين.."

فقال باي مصححاً:

"أيداً... لديها حاسة شم قوية تعرف بها رائحة عطر ما بعد الحلاقة.."

ولم تصحح سابرينا كلامه... لأنها لم تكن واثقة من أن هذا الشعور الذي خالجها هو الذي حدثها عن وجوده هناك، أم رائحة عطره هي التي هدتها إليه..

وتنفس الدكتور جو نفساً عميقاً وقال:

"فلنعد إلى المهمة التي بين أيدينا الآن، لقد قممت بتحليل نتيجة الفحوص مرتين.."

وتوقف عن مواصلة الحديث قليلاً فاندفع غرانت لين قائلاً:

"وماذا بعد؟..."

"لا تنس أننا نقامر يا سيد لين.."

وكان التجهم الذي يشوب صوته يحمل في طياته إنذاراً... وودت سابرينا أن تسمع بقية الجواب بسرعة... فأردف يقول:

"وعلى ما يبدو أنه ليس بإمكاننا فعل أي شيء، وإنني لشديد الأسف أن أفضي لكم بالحقيقة.."

٨١

وكان الصمت الذي ران على أبيها، يحدثها بأن أباها كان يتلو الصلوات من أجل حدوث معجزة. وصلت هي بدورها، ولكن النطق بالحكم الذي صدر منذ لحظات سحقها تماما، ورسمت ابتسامة باهتة على شفتيها وقالت:

«كان علينا أن نتخذ الفرصة التي أتيت أماننا... يا دكتور جو»

وازدادت ابتسامتها عندما استعادت أول ليلة أمضتها بالمستشفى، وتذكرت باي وهو يقول لها: يجب أن نهب الفرصة هاستنا.

وسار الطبيب نحو الفراش وأمسك إحدى يديها بدفء وقال لها:

«شكرا لك يا سابرينا»

وبعد أن قدم تحيته لأبيها رخل وهو يعتذر له ثانية، ثم سمعت باي يقترب من فراشها، وتوقف بالقرب منها، وشعرت بنظراته النافذة ترمق وجهها، وسألها بهدوء:

«هل أنت بخير؟»

فكانت هامة:

«أجل»

وأدركت أنها تقول الحقيقة، وليس مجرد كلمات شجاعة ترددها فقال باي لها:

«أنا أعرف أن ملكتي العمياء الثائرة، ستعيد صقل الموقف ثانية»

فأجابت سابرينا:

«بمساعدة استطاعت هذه الملكة أن تفعل الشيء الكثير»

فقال باي مستنكرا:

«لا يسعني إلا أن أشهد بأنك ذات إرادة قوية، ولكننا سنناقش الأمر في وقت آخر. ما رأيك في أن نلتقي في مساء السبت؟»

فكررت كلامه:

«مساء السبت»

«أجل يمكننا أن نتناول العشاء سويا. سأمر بسيارتي حوالي الساعة السابعة»

فسألته وفي حلقها حشجة:

«هل هذا أمر أم دعوة؟»

«كلاهما. هذا يتوقف على ردك»

فكانت سابرينا مطاطنة الرأس:

«أنا فضورة أن أتناول العشاء معك... يا سيد كامبيرون»
وأضافت تتحدث إلى نفسها في صمت: بل أنه أكثر من الفخر. ثم أخذت تتطلع إلى مساء السبت، بشغف غير عادي.

حول عنقها سلاسل ذهبية طويلة، وبعد أن اطمأنت الى مظهرها أردفت تسأل:

"هل كان من الأفضل أن ارتدي ثيابا أبسط؟"

صمتت ديبورا عدة ثوان حتى عثرت على إجابة تناسب سوءها ثم قالت:

"لا أظن ذلك. قد لا تذهبين الى مطعم فخم لتتناولي فيه طعامك، ولكن لا يعد هذا سببا كافيا لأن يبدو مظهرك أشبه بتنفيذ البحر. إن زي البنطلون يصلح لأي مناسبة، فيما عدا الحفلات الرسمية."

قالت سابرينا:

"حسنا..."

وتنهدت في ارتياح، إذ أصبح من الصعب عليها أن تعتد على ذاكرتها في اختيار الملابس المناسبة منذ وقوع الحادثة. وعندها دق جرس الباب قالت:

"لا بد أنه باي."

قالت ديبورا:

"محفظة نقودك فوق المنضدة، سأخبر باي بأنك في الطريق اليه."

تناولت سابرينا النقود، والتقطت العصا العاجية من فوق حامل المطلات، وعلقتها على ذراعها، وفتحت الباب المظلم على الردهة وألقت تحية وداع الى أبيها قبل أن تغلقه وراءها. وهبطت درجات السلم في لهفة وشوق، واخترقت سريعا الممر الموءدي الى البوابة حيث فتحتها وقالت بملء فمها:

"أنا مستعدة."

ولحست يد باي ذراعها بخفة وهو يقودها الى الحكان الذي وقفت فيه سيارته وقال لها:

"كنت أتمنى أن ترتدي ثوبك الجديد هذه الليلة."

فضحكت سابرينا برقة:

"سأبدو حمقاء لو ارتديت هذا الثوب عند القيام بنزهة خلوية."

فقال متسائلا:

"تقولين نزهة خلوية؟ إننا لسنا عازمين على القيام بنزهة خلوية. إنني سأصحبك الى أحد المطاعم للناول العشاء. ألا تذكرين؟"

٦ - زيارة الى المطعم

نزلت سابرينا ببطء درجات السلم التي توءدي الى الطابق الثاني، وهي تمبث بأصابعها في عقدة الشعر المعقوفة فوق رأسها، وظهرت تقطبية صغيرة بين حاجبيها عندما سمعت صوتي أبيها وديبورا يترددان في غرفة الجلوس فسارت نحو الباب المفتوح وتجهلت، ثم نادى سابرينا بصوت يشوبه القلق:

"ديبورا... هل يمكن أن أراك دقيقة واحدة؟"

"طبعاً."

وخطت ديبورا خطوات سريعة مكتومة فوق السجادة، وهي تسعى الى الباب حيث تقف سابرينا ثم سألتها:

"ما الأمر؟"

"هل يناسيني زي البنطلون؟"

تجهمت ديبورا في اضطراب وقالت:

"أظن أنه يناسبك. هل ذعاك باي الى تناول طعام العشاء في الخارج؟"

فقالت سابرينا:

"سنلتقط شيئاً من دكان المرفأ، لنأكله كما فعلنا في المرة السابقة، ثم نقوم بنزهة خلوية في مكان ما. إنه لن يصحبني الى مطعم عام."

ولمست بيدها البنطلون الفضفاض، الرمادي اللون، والمطرز بخياطة بنية غائقة، وقد انتقت له بلوزة عالية بنية اللون أيضاً، وحملت على ذراعها سترة من نفس اللون، وعلقت

وعندما حاولت أن تقول:
"ولكن..."

قاطعها وهو نافذ الصبر:
"ولكن ماذا؟"

قالت وهي توءد مخارج الكلمات بضربات من أصابعها فوق
عصاها:

"أجل... أذكر ما قلته."

واحتضن ظهرها بذراعه، وهو يقودها بشدة إلى السيارة
وفتح الباب، وساعدها على الجلوس على مقعدها، وراحت
تبحث بيدها عن مقبض السيارة، لتؤكد من أن الباب مقفل،
ولكنها قبل أن تعثر على القفل، كان باي قد استدار حول
السيارة واستقر على مقعده، وأطبق بيده على معصمها،
فقالت سابرينا:

"أنت لا تعيرني اهتمامك."

قال لها باي وهو يقود السيارة بيد واحدة لتتحرف عند
المنحنى:

"لا أستطيع أن أعيرك كل اهتمامي، وأقود السيارة في وقت
واحد. إننا سنتوجه إلى مطعم إيطالي صغير وجميل. منظره
ليس فخما من الخارج ولكن طعامه رائع."
فأعلنت قائلة:

"لن أذهب."

فقال بصوت نافذ الصبر:

"سابرينا... لا يمكن الاستمرار في تجنب الأشياء التي تثير
الحرج لك."

فقالت معقبة على كلامه:

"ستبدو أحمق عندما تقودني إلى المطعم."

"أتمنى ألا تقيمي وزنا لما سأبدو عليه، لأنه إذا كان هو
السبيل الوحيد إلى أن تطأ قدمك باب المطعم، فأني على
استعداد لأن أكون أحمق."

وفي لمح البصر أدركت سابرينا أنه يعني ما يقول ولن يغير
من الموقف أي بادرة عناء أو غضب تبديها، فهو يعني حقا
دخول المطعم بطريقة أو بأخرى.

فقالت له بهمسة غاضبة:

"أنت قاس ومستبد. لا أعلم لماذا أتيت معك هذه الليلة...
كان علي أن أتكهن بأنك سوف تتصرف معني مثل

هذا التصرف..."

فقال ساخرا:

"خير لك أن تتخذي حذرك. ففي وسعي أن أغير رأيي،
وأخذك إلى مطعم صيني، وأضع في يدك العودين اللذين
يستخدمهما الصينيون في تناول طعامهم. ولا أظن أنك
تجيدين استعمالهما..."

وانفجرت شفتاها عن ابتسامة عريضة، ولكنها أسرعت
تغطي فمها براحتها حتى لا تنطلق الضحكة التي أوشكت أن
تنفجر من بين شفتيها. لم تستطع أن تتقن استعمال العودين
عندما كانت مبصرة، فما بالها الآن وهي عمياء؟ لابد أن
منظرها سوف يدعو إلى السخرية والرتاء.

ضحك باي برقة وقال:

"إنني أرى ابتسامتك التي تخفيها، وهذا يمد تقدما في
سلوك القردة العمياء المنيدة، استمري في إخفائها، ولا
تخجلي إذا بدا شيء منها. فالمبصرون يبتسمون دائما."
فتنهدت سابرينا وقالت بمرح:

"لماذا لا أستطيع أن أتفوق عليك في مناقشة واحدة؟"

فقال:

"لأنك يا ملكتي العمياء تعرفين حقا أنني على صواب."

ولدهشتها تناولوا الطعام بدون حدود أية نكبات، بينما
اعتادت سابرينا أن ترتطم يدها بالأكواب، ويسقط الطعام
على المائدة في المرات السابقة التي تناولت فيها طعامها
خارج البيت عقب الحادث، أما في هذه المرة، فلم يحدث
شيء من هذا القبيل، وأنذرها باي ضاحكا بأنه سيطلب لها
طبقا من المفكرونة الاسبانياتي، ولكنها وجدت أمامها فنجانا
من القهوة بدلا منه.

أسندت ظهرها إلى مقعدها، ولمست يدها بحرص فنجان
القهوة حتى تقدر مكانه تماما، وبدت تنهيدة رضا من بين
شفتيها، وسألها باي برقة:

"لماذا تتنهدين؟"

فأجابت:

"لأنها وجبة ممتعة. أشكر لأنك أجبرتني على المجيء..."

فقال لها بصوت عابت:

"أفضل أن تقولي أقنعتني بدلا من أجبرتني..."

قالت باسمعة:

* أقنعني بالمجيء إلى هنا *

سألها بصوت حاد ولكن بنبرة مراوغة:

* ألم تشعرني بالكآبة عندما علمت بنتيجة الفحوص السلبية؟
قالت سايرينا:

* طبعاً كنت أتمنى أن تكون النتائج إيجابية، ولكنني لم أعر الأمر اهتماماً كبيراً لسببين: أولهما لأنك أسديت لي نصيحة، وثانيهما لأنني بدأت في العمل مرة أخرى بصورة خلاقة. عندما ذهبت هذه المرة إلى المستشفى لم تكن حياتي كفئة عمياء بلا هدف، أما في المرة السابقة فقد أصدر المختصون حكمهم ولم يكن لدي أي هدف سوى الفراغ الآن يا بابي عندي هدف *

* أنت تشيرين إلى ممارسة فن النحت... متى تسمحين لي بمشاهدة إنتاجك؟

فقالت سايرينا بابتسامة:

* عندما أكون مستعدة لمواجهة النقد *

فقال بابي متحفزاً:

* وهل تظنين أنني سأكون مصيباً في حكمي؟

قالت:

* لا أظن أنك ستجيز الموضوع بتقدير متوسط لأنني ببساطة عمياء *

قال:

* لا أظن أنك سوف تركزين على هذا المسند، أو ترتضين بخفض مستواك *

هزت سايرينا رأسها وقالت بنبرة دافئة:

* لا أستطيع، فكل ما أبتغيه هو أن أكون جيدة في عملي. أريد أن أكون عظيمة بالفن الذي اعتبره كل مستقبلي، وهذا هو السبيل الذي يفتح لي باب الأمل لأن أعول نفسي.

فسألها:

* وهذا أمر هام بالنسبة إليك... اليس كذلك؟

استرسلت تقول:

* أجل. ليس من أجل كبريائي فقط أو استقلالي، وإنما من أجل أبي فأنا لا أريد أن أكون عبئاً عليه، أنا أعلم أنه لا يفكر في هذه الطريقة إلا أنني أعرف أنه لم يتزوج ديبورا بسببي، ولكنه سوف يتزوج عندما يكون لي دخل مستقل أستطيع الاعتماد عليه *

فقال بابي مقترحاً:

* أو تتزوجين، وهذا سبب وجيه لترك البيت *

فضحكت سايرينا، ولم تأخذ اقتراحه بجدية:

* هناك عقبتان تعترضان هذه المشكلة *

سألها:

* ما هما؟

قالت:

* أولاً هما: لا يوجد إنسان وقعت في حبه، وليس من المعقول

أن أتزوج رجلاً لمجرد الرغبة في أن أترك البيت *

سألها:

* والعقبة الثانية؟

قالت:

* والعقبة الثانية متعارضة للغاية، لأنه ليس هناك شخص

يرضى بالزواج مني *

وهزت رأسها هزة متشككة في العثور على هذا الشخص *

سألها بابي بسخرية:

* هل هذا الأمر بعيد الاحتمال؟

فضحكت بهدوء مرة ثانية وقالت:

* يمكن أن يحدث... لو وجد شخص عاقل *

قال:

* دائماً أعتبر نفسي شخصاً عاقلاً. وأظن أن هذا وحده كفيلاً

بأن يضعني خارج المسابقة. اليس كذلك؟

وشعرت سايرينا ببصره يتأمل وجهها، ويتحفز لمعرفة رد

الفعل وأدركت فجأة فحوى الموضوع الذي تدور حوله

مناقشتها. فأجابت بحزم:

* بالتأكيد أنت خارج المسابقة *

فقال بابي:

* أظن أن ذلك يقرر الأمر *

وأحست سايرينا بأن الفتور الذي شاب صوته كان لسبب

أعمق من مجرد عدم اهتمامه بردها. فربما فكر في أنها تريد

أن تفوز به لثرائه *

* هل تريدین مزيداً من القهوة يا سايرينا أو تبغين الرحيل؟

ومدت يدها فعثرت على العصا معلقة على ذراع المقعد،

وقالت له:

* لا... أشكرك. أنا مستعدة للرحيل إذا كنت أنت مستعداً *

وبعد هذا العشاء الأول الناجح، دعاها باي الى تناول الطعام خارج البيت عدة مرات، خلال الأسابيع التالية، وكانت المطاعم التي وقع اختياره عليها غير مزدحمة بالزوار، ولكنها تقدم الطعام الجيد.

وكانت ترتبك عندما يتوقف أصدقاء باي عند مائدتهما للتحية، وكانت تحس بدهشتهم عندما يعلمون أنها فتاة عمياء ويعجبون لمصاحبة باي لها.

وفي بعض الأحيان كانت هي نفسها تتعجب لمصاحبتها لها، ولكن الجواب فقد أهميته، فقد كان يكفيها أنها تتمتع بصحبته دون أن تسأل عن دوافعه الى مصاحبتها، وبالرغم من أنها خرجت من قوقعة حياتها ألا أنها كانت تكره مشاعر الشفقة من أي إنسان وبخاصة باي.

صقلت سابرينا بحرص ذراع التمثال الصلصال، وتركت أصابعها تنقل صورته الى ذهنها، وانتابتها رجفة خفيفة من الزهو المكبوت عندما تصورت الصورة الكاملة لتمثال راقصة الباليه التي راحت تدور حول نفسها، وازدادت ثقتها بيديها مع مرور الأسابيع وفاقحت محاولاتها الناجحة عدد محاولاتها الفاشلة.

وتردد صوت خطوات أقدام ترتقي درجات السلم فتراجعت سابرينا من أمام منضدة العمل، وتراقصت ابتسامة شاحبة على شفثيها، وقامت بمسح يديها في المنشفة، واستدارت بخفة تجاه الباب في الوقت الذي اقتربت فيه الخطوات منها، وبدت في وقفها لهفة لم تستطع أن تخفيها، وقالت عندما توقفت الخطوات عند الباب:

"ادخل يا أبي."

وعندما انفتح الباب، تمايلت برأسها استعدادا لسماع صوت القادم، ولم يكن الشخص القادم أباهاً، وإنما كان باي... أدركت ذلك بفريزتها.

وسألت بدهشة:

"ماذا تفعل هنا؟ قلت إنك لن تأتي قبل الساعة." لا أظن أنها الساعة السابعة بعد فلم أنس نفسي في العمل."

ولم تتأكد سابرينا من الوقت لأن ساعتها لم تكن معها.

فقال باي:

"ليست الساعة كما تظنين، إنما في منتصف بعد الظهر، لما رأيت أنك امتنعت عن دعوتي حتى لا أرى عميلك، سألت

أباك بأن يرسلني اليك هنا بدلا من أن يدعوك الى الطابق السفلي."

وتحركات سابرينا بضع خطوات في حركة دفاعية تلقائية، لكي تعترض مسار بصره، فلم يرى أحد عملها بعد سوى أبيها وديبورا، ولم تكن على استعداد للسماح لأي شخص غريب عن أسرتهما أن يرى ماذا صنعت أصابعها، وتمتمت قائلة:

"هذا لا يفسر سبب وجودك هنا في هذا الوقت من النهار."

واستطاعت أن تحس بابتسامة تشوب صوته وهو يقول:

"هل حقا لا يفسر سبب وجودي؟ كنت أظن أنه ضروري، وفي الحقيقة لدي عرض آخر لتسلي الى الاستديو، إنني أود أن أخبرك بأنني ألغيت عشاءنا الليلة، أنا آسف يا سابرينا."

فقالت باستخفاف:

"حسنا..."

ولم يكن حسنا البتة! لأنها لم تكن ترغب في أن يعرف مدى شوقها الى تفضية الأمسية معه، ولم تحب أن تبوح له بذلك. فليس هناك مستقبل في هذه الدعوة، وإنما مستقبلها هنا، في الاستوديو حيث يوجد العمل.

قال باي:

"هل أشعر بالسرور أم أتألم من إهانتك لأنك تلقيت الخبر بهدوء شديد؟"

وأحست سابرينا بحركة ارتفاع حاجبه الكثيف وهو يتحدث اليها، كانت مزيجا بين الدهشة والسخرية، وأردف يقول:

"كنت أتوقع منك الأسف لإلغاء الدعوة."

قالت بصوت يتسم بنبرة كبرياء:

"كنت أتمنى أن أتمتع بالأمسية، لا بد أن هناك أمرا هاما أجبرك على إلغاء عشاءنا، كنت أود أن تحذر صديقك الغيور بأنها ليست في حاجة الى أن تنتزع عيني فأنا عمياء تماما وفي غنى عن تشويه وجهي."

وكانت ملاحظة سابرينا مازحة، وأجابها باي مازحا أيضا:

"ما الذي يدقك الى الظن بأن صديقني الغيور هي التي غيرت خططنا؟"

فقالت بابتسامة:

"لا أعرف أنها هي التي غيرت خططنا، وأن كنت أتمنى ألا تتوقع مني أن أعتقد أنك أعزب."

فقال:

"وما الذي يدفعك الى الاعتقاد بأنني لست أعزب؟"
وذكرها سؤاله بصورة وجهه الرجولي الشهم الذي تحسنته
بيديها، وودت لو تبين له بأن تصرفاته في عدد من المواقف
التي مرت بها في الماضي تجيب على سؤاله.

ابتسمت سابرينا وقالت:
"كل فتاة لها أساليبها الخاصة لمعرفة هذه الأشياء، وأعتقد
أنه نوع من غرائز الانثى."
فسألها بتراخ:

"إذا كنت تمتددين ذلك عني، إذن ماهو رأيك في أننا لم تبلغ
بعد في علاقتنا الألفة والمحبة؟"

وضحكت سابرينا كأن سوءه يدعو الى السخرية:

"حقاً... يا باي، إننا صديقان، لا أكثر من هذا."

"تقصدين علاقة أفلاطونية، أليس كذلك؟"

ورفعت جبينها إزاء ملاحظته القاسية وقالت:

"طبعاً."

فقال ساخراً:

"في هذه الحالة... متى تبتعدين عن الطريق لكي يرى صديق
ما عملك؟ إن رؤيتي محدودة الى حد ما بوقوفك أمامي!"

واستنتجت سابرينا أنها توهمت القسوة في سوءه
السابق، قدرت ما هو ظاهر فقط، واعترتها لحظة تردد، وظلت
مكانها وكانت ترغب في معرفة رد الفعل الواقع في هذا
المجال الفني، وتنحت جانباً، والخوف يعتريها لسماعها لباي
بأن يتقدم حتى يرى أعمالها عن قرب، قالت بعصبية:

"بعض محاولاتي الأولى على المنضدة الجانبية، وكما ترى
أنها ليست جيدة، ولكنني أحسن ببطء، في هذه الآونة أقوم
بتشكيل عدة تماثيل لراقصات الباليه، فكرت في أن أصنع
تماثلاً لفرقة باليه صغيرة يتوسطها راقصان."

وخيم صمت بلا نهاية، وكادت أعصاب سابرينا تحترق من
طول الترقب، كانت تتوقع حدوث مفاجأة من باي، وتشابكت
يدها كأنها تردد صلاة، وأخيراً سألتها:

"هل شاهد أحد أصدقائك عملك؟ أقصد أصدقاءك الفنانين؟"

وهزكت رأسها بالنفي قبل أن تجيب:

"فقط أبي وديبورا."

فتتمت قائلاً:

"أنا لست بناقذ يا سابرينا، أعرف فقط ما يروقني،"

وقد تأثرت بما أراه هنا، ألم تمارسي هذا العمل من قبل؟"

وتنفست الصعداء، وقالت:

"أبداً لم أفعل هذا من قبل، هل تظن أنه عمل جيد؟ لا تقل أنه
جيد حتى ترضي فتاة عمياء مثلي."

وكانت سابرينا في حاجة الى سماع استحسانه مرة ثانية،
قال لها:

"لقد عاملتك منذ اللحظة الأولى التي التقينا فيها، وأنا أرثي
قفازات رقيقة أما الآن فإني غير مستعد لاستعمالها ثانية،
أنت تعرفين جيداً أن ما صنعتك يداك أكثر من جيد، وأستطيع
أن أرى ذلك بوضوح والمتخصص هو الشخص الوحيد الذي
يمكنه أن يقرر مدى جودتها وإذا كنت ترغبين في الأخذ
بأقتراحي، عن إنسان متخصص في الفن، ففي وسعي أن
يعطيك الجواب الشافي."

رفضت سابرينا قائلة:

"لا... لم يحن الوقت بعد..."

وران عليها الصمت، وكانت ثقتها في قدرتها الفنية لم
تبلغ بعد الدرجة التي تستطيع بها مواجهة النقاد، ثم أردفت
تقول:

"أنا لست مستعدة لذلك، فإني أحتاج الى مزيد من الوقت..."

فقال لها:

"أي إنسان مستعداً لسماع حكم الآخرين، ولكنه لا يستطيع
تأجيل القرار الى الأبد..."

أبدى لها هذه الملاحظة برقة، وهو يذكرها بحاجتها العملية
لرأي الآخرين، إذا كانت قد اتخذت من هذا الأسلوب
التشكيلي مجالها الفني.

قالت مرعدة كلامها:

"لا... لم يحن الوقت..."

وراحت تمسح راحتها فوق القميص الخارجي الذي ترتديه
وقال لها باي:

"سيكارة؟"

قالت سابرينا وهي تطلق زهرة من صدرها:

"أجل... من فضلك..."

وبلغت رائحة الدخان أنفها، وهي تمد يدها لتتناول
السيكارة، ولكن باي وضعها بين شفتيها، ولمست أصابعه
فمها، فسرت رجفة في سلسلتها الفقرية.

قالت له بتردد:

"يوجد قهوة وكعك في الطابق الأول، هل تحب...؟"
وقاطعها باي رافضا:

"لا... أنا آسف، لا أستطيع أن أمكث فترة أطول، وأحب أن أخبرك بأنه لن نتاح لي رؤيتك خلال الأسبوع القادم أيضا، ولكن بالمناسبة يوجد هناك عرض في دار الأوبرا، معي تذكرتان، هل اعتبر الدعوة مفتوحة إذا كانت لديك الرغبة في مشاهدته؟"

فابتسمت سابرينا وقالت:

"سأتمتع برؤيته..."

فقال مبتسما:

"أعذك بأنني لن أقوم بإلغاء هذه الدعوة، أوه... على فكرة هناك شيء أريد أن أقدمه لك اعتذارا عن إلغاء دعوتي لك هذه الليلة..."
تقدمه لي؟

وتجهمت عندما سمعت حركة يده وهي تعبت في جيبه وصوت خفيف الورق، وعندما وضع في يدها علبة مغلقة طويلة ورفيعة، أشبه ما تكون بعلبة جواهر.

أمرها وهو يضحك من ترددها:
"افتحها، ليست باهظة الثمن، إذا كان هذا ما تخشيه، يمكنك أن تقرري رميها في وجهي عندما تكتشفين كنهها..."
واعتراها الفضول وحب الاستطلاع عندما شرعت في فض غلاف العلبة، وأبعدت الغطاء، وراحت أصابعها تستكشف... فلمست زوجين من العصي، عندئذ استدارت نحوه في تعبير حائر وسألته:

"عصي؟"

ولحق باي لسانه وقال:

"ليست تماما عصيا، وإنما هما العودان اللذان يتناول بهما الصينيون طعامهم..."

ابدئي في التدريب على استعمالهما لعدة أسابيع قبل أن أصحبك إلى مطعم كانتونيس في الحي الصيني...
وجلجلت ضحكة في حلقها، وعضت شفتيها السفلى حتى تحول دون انطلاقها.

وقالت بسخرية:

"المفروض أن أقدم لك شكري لأنك وجهت لسي

تحذيرا مسبقا..."

ووافق على كلامها قائلا:

"أجل... يجب أن أقدمي الشكر لي..."
ولكن سابرينا لم تستطع التحكم في ضحكتها، فأطلقتها ثم قالت:

"وحتى بالتدريب... فإنني لن أستطيع تناول أي شيء سوى أقراص البيض أو الأطباق الدسمة، أما باقي الأطعمة فسيكون مصيرها الأرض... أو مفرش المائدة..."
فقال باي مبتسما:

"سأقبل المغامرة، أما بالنسبة ليوم السبت القادم، فأعتقد أن المناسبة تتطلب منك ارتداء ثوب السهرة..."

فضحكت سابرينا وقالت:

"هل أعتبر طلبك هذا أمرا... أيضا؟"
فقال:

"إذا كنت تعتبرينه كذلك، هل تنصاعين له؟"
فهزت رأسها وقالت:

"أجل..."

وابتسمت ابتسامة عريضة، امتدت عبر وجنتيها فخففت من شكل وجهها المربع. وكان لاستحسان باي لعملها أبلغ الأثر في نفسها لبذل المزيد من الجهد للوصول إلى الكمال الذي تنشده. وهذه العناية المتجددة جعلت الأسبوع يمر سريعا، وكان الحفل المقام في دار الأوبرا أكبر جائزة تتلقاها لقاء مجهوداتها.

وكانت سابرينا تشعر بتوتر خفيف لمجرد ذهابها إلى مكان عام ولكن هذا الشعور اختفى عندما أثنى باي ثناء طيبا على مظهرها فمئذ الحادث كانت تحس بمزيد من الألم عندما تقوم ديبورا بمساعدتها على تصفيف شعرها أو تجميل وجهها ولكنها عرفت كيف تتخلص من هذه الآلام لحظة أن بدأت تمارس عملها في الاستوديو.

ولم تعد ديبورا تشير إلى المدرسة الخاصة التي ستلتحق بها سابرينا، لأنها كانت تعتمد اعتمادا كليا على المجهودات التي تبذلها سابرينا لتحقيق السعادة لكليهما.

وجاء يوم السبت، واستعدت سابرينا للتوجه إلى الحفل ولم تكن في نيّتها حمل عصاها العاجية، التي تعلن لجميع الحاضرين في دار الأوبرا بأنها عمية... ومع هذا ناولها

باي العصا وهما يفادران باب المنزل . وكانت تعلم مسبقا أنه
يعنقها لو أنها رفضت استعمالها ، لذلك لاذت بالصمت .

وفي فترة الاستراحة بين الفصول وقفنا عند مدخل المسرح
وهي تحمل عصاها على ذراعها ، ولو لم تكن في صحبة باي
لظلت في مقعدها طوال العرض ولكنه دفعها الى الخروج الى
الردهة .

ولم يكن باي بالشخص الذي يمكن تجاهله ، فإن قوامه
الفارع يجذب الانتباه اليه ، حتى لو لم تجذب رجولته الأنظار .
ولذلك كانت سابرينا تعرف أنها ستكون هدفا لاهتمام الناس
وتساءولهم وبخاصة أنها تحمل عصا على ذراعها . وفي
صحبه . وأخذ باي يرد على تحيات الناس ، ولكنه لم يشجع
أحدا على الحديث معه ، ولم تكن سابرينا على يقين من سبب
تجنبه الحديث معهم ، هو بسبب انزعاجها من لقاء الغرباء ،
أم لحملها العصا ؟ وكان الرأي الثاني لا يتلاءم مع طبيعته
ولذلك طرحته بعيدا عن تفكيرها . وتناهى الى سمعها صوت
سيدة عجوز تحييها قائلة :

"باي كامبرون ."

فالتصقت به سابرينا بلا وعي طلبا لحياته ، وأردفت
السيدة العجوز تقول :

"لم أرك منذ مدة طويلة ، أين كنت تخفي نفسك ؟ هل هذه
السيدة الصغيرة سبب غيابك عنا ؟"

وحرك باي يده لتستريح على كتفي سابرينا ، ودفعها قليلا
الى الامام كأنه يقدمها لها :

"باميلا . . . أقدم لك سابرينا لين . وأنت يا سابرينا أقدم لك
صديقتي العزيزة باميلا تايسن وهي شخصية فضولية محبة
للاستطلاع ، ولكنها طيبة القلب ."

قالت باميلا :

"لا تصدقيه يا فتاتي ، إن لدغتي سيئة وصارخة كعواء الكلب ،
فاذريها يا أنسة لين . أنت أنسة . . . أليس كذلك ؟"

قال باي :

"هل تدركين يا سابرينا ما أعنيه بأنها محبة للاستطلاع ؟
وأيدته سابرينا قائلة وعلى شفقتها ابتسامة شاحبة :

"أجل . . . أنا أنسة لين ."

وسلمت سابرينا بأن الوصف الذي ذكره باي عن باميلا
تايسن كان صحيحا بالرغم من أنها شخصية محبة

للاستطلاع وقوية الشخصية ألا أنها طيبة القلب .
قالت باميلا :

"نحن السيدات العزباوات يجب أن نبقى جنبا الى جنب .
وهذا لا يعني أنني مكثت طوال حياتي عزباء . فقد ترملت
مرتين ، ويقولون إن الرجل الثالث له سحر خاص وأنت يا
عزيزتي هل تنوين اقتناص عزيزنا باي ؟"

أجفلت سابرينا ، ثم قالت وهي تحاول أن تنفي التهمة
بشدة :

"بصعوبة . . . يا سيدة تايسن ."

"أظن أنها وصفتك تماما . . . يا باي ."

- ووافق على كلامها قائلا :

"إنها فتاة صغيرة تحب الاستقلال . . . ولا تحب الارتباط
بأحد ."

وأحست سابرينا بعدم الارتياح في نبرة صوته ، فقالت له
السيدة :

"يجب أن أتعرف على سابرينا جيدا . أحضرها الى حفلي بعد
الاستعراض . . . وكان هذا أمرا . . . وليس طلبا ، وألقت السيدة
العجوز بحية وداع قبل أن تبدأ سابرينا باي على رفض
دعوتها ."

قالت له سابرينا متوسلة عندما انفردت به :

"لا أظن أنك تنوي حقا الذهاب الى حفلي ، أليس كذلك ؟"

قال بهدوء :

"ولم لاذهب ؟ إن حفلات باميلا هادئة وودية ."

فقالت سابرينا مدافعة :

"إنني لا أرتاح الى الغرباء ."

قال باي :

"إن الوقت كفيل بالتغلب على هذه المشكلة ."

وكانت ذراعها على ظهرها ، فدفعها الى المشي وهو يقول :

"لدينا الآن بضع دقائق تساعدنا في العثور على مقعدينا ، قبل
أن ترفع الستارة ."

أي سبب يبرر عدم ذهابنا الى حفلها وبخاصة أن الوقت أصبح لا يسمح لنا للاعتذار وشمخت بأنفها في تحير وقالت *
 "لا أريد أن أذهب، ويعد هذا سببا كافيا بالنسبة الي *
 فأجاب باي بصوت ينم على أنه لا يرغب في مزيد من الجدل:

"لا * ليس هذا سببا كافيا *
 فقالت سابرينا وهي تحتل مقعدها:
 "أنت مستبد يا باي كامبيرون *
 فقال برقة:
 "شكرا لك *
 فكررت قولها:
 "مستبد *"

أما وقد كبح باي جماحها بطريقته، فإنه قادها مرة ثانية الى موقف ليس من اختيارها، ولم تستطع سابرينا تركيز حواسها حتى تعرف الاتجاه الذي يتجهان اليه، وشعرت أنها لم تعد تكتفي موقع المنحنيات، ولم تعد تدرك أي الطرقات يتخذ. وكان غياب الحركة الكثيفة للحرور يشير الى أن المنطقة أهلة بالسكان، ولكنها لا تدري أي قطاع من المدينة قد بلغاه *

وأبطأت السيارة في سيرها، وعندما مالت عند منعطف أعلن باي:
 "لقد وصلنا *"

وأوقف دوران المحرك، ولم تتفوه سابرينا بكلمة. كانت تجلس في صحت مطبق وهو يفتح الباب ويغلقه وراءه. وراحت بخيالها تراقبه وهو يدور حول السيارة ويتجه نحو بابها، وقدرت الثانية التي يقوم فيها بفتحه، فلم تتحرك من مقعدها، فقال لها سائرا:

"هل أنت قادمة معي، أم أنك عزميت على البقاء في السيارة، وأنت مقطبة الجبين كالطفل الصغير؟"
 قالت سابرينا ببرود:

"إذا كان لي حرية الاختيار، فإنني سأبقى في السيارة *
 تنهد باي بصوت اتسمت نبرته الرقيقة بالصبر:
 "سابرينا * هل تدعين حقا بعض الغرباء يدخلون الرعب في قلبك فتحجبين عن لقيامهم قابعة في السيارة؟"
 "إنهم لا يلقون الرعب في نفسي *"

٧ - حفل ودي

راحت سابرينا نعبث بأصابعها في الفراء الذي يزين سترتها المسائية السوداء، ثم دفعت الياقة حول عنقها. وتهدل ركنا شفتيها في يأس واضح، وهي تقرض شفتها السفلى، ولم يحل زجاج السيارة المفلق دون سماع صوت السيارات الأخرى الرافقة أمام المسرح،

قالت وهي صونها نبرة يأس:
 "لماذا لا توصلني الي البيت، وتذهب وحدك الى الحفل؟"
 قال باي يذكرها:
 "الدعوة موجهة لكلينا *"

قالت سابرينا:
 "السيدة تايسن لا تعرفني، ولن تفتقدني إذا لم أذهب *"

أجابها وهو يبتسم بحزم:
 "أجل * إنها ستفتقدك، وخاصة أنك كنت الدافع الى تقديم الدعوة *"

"لم أفعل ذلك *"
 قال وهو نافذ الصبر:
 "دعيني أعيد صياغة عبارتي. دعنا الى حفلها بعد مقابلتها لك لأنك أثرت فيها حب الاستطلاع *"

جادلته سابرينا قائلة:
 "لم نتح لنا الفرصة للقبول أو الرفض، وإلا كنا أعددنا الخطط لمواجهتها *"

"ليست لدينا أية خطة الآن، أليس كذلك؟ لا يوجد هناك

أنت تخافين من الدخول الى الحقل . يا هي الكلمة التي
تناسبك ؟

قالت سابرينا بتأكيد واضح :
أنا لست خائفة .

فقال باي موعيدا ولكن صوته تم عن استنكاره :
بالطبع ... لا .

فكررت كلامها بغضب :
أنا لست خائفة .

فقال باي ثانية موعيدا ، ولكن بنفس التبرة المستنكرة :
لايهم شعورك ، فإذا كنت قد عزميت على الحنوس في السيارة
فلنني أقترح إلخاقي جميع الأبواب عليك . وإن أعيب عنك أكثر
من ساعة .

فتجهمت سابرينا ، ودفعت رأسها الى الوراء ، غير وانفة
عما إذا كان باي يداعبها أم أنه جاد في كلامه . فقالت له :
أنت لن تتركني هنا وحدي .

قال لها يذكرها :
ألم تقولني أنك تفضلين البقاء في السيارة ، وعندما أدخل الى
الحقل سأفسر لهم رفضك الحضور .

فقالت :
لن تجرؤ على أن تخبر السيدة بأنني خالصة في السيارة .
وقابل باي تساؤلها بهدوء . هذا الهدوء الذي عبر عن عزمه
على إبلاغها بوجودها فقالت مزمجرة :
من المؤكد أنك ستفعل شيء كهذا !

وتحولت لتخرج من السيارة ، ومد يده ليتلقى ساعدها حتى
يقودها الى الرصيف ، وقادتها وصيفة الى داخل المنزل ،
وكانت الاصوات الدافئة والورود تجلاء البهو ، وهي قادمة من
عدة اتجاهات فأحست سابرينا بأن الحفل يضم عددا كبيرا من
الضيوف ، وعندما حدثت الوصفة عنها البسترة ، تناول باي
ذراعها ، وقادها الى الاتجاه الذي تتبعته منه أغلبية
الاصوات ، وزمت شفطتها بشدة ، فهمس باي في أذنها قائلا :
ابتسمي .

قالت :
لا .

ولكن الكدر الأليم في تعبير وجهها خفت حدته
ودخلا سويا الى الغرفة ، وهي لا تدرك أن حالة من العظيمة

قد ألقت بميل رأسها الذي يعتلي عنقا أشبه بعنق البجعة ،
وكان قوامها الملكي ولوبها الناعم المتألق بألوان الذهب قد
جذبت اليها الأنظار : كما جذب أيضا باي . ولما كان هو
معروفا لأغلب الحاضرين ، فإن التحيات كانت توجه اليه
وحدده .

ولم تعرف سابرينا واحدا منهم ، فأخذت أصابعها تضرب
على حقبض عصاها العاجية ، فكشفت عن الاضطراب الذي
يموج في اعماقها لمجرد وجودها في غرفة مليئة بالاعراب .
وتناهى من الجهة اليمنى صوت معروف لديها ، وكان صوت
السيدة باميل تايسن ينادي عليها :

باي . . . سابرينا . . . أنا سعيدة بقدمكما .

وعندما وصلت اليها السيدة تايسن ألقت عليها سابرينا
كلمة مرحبا ولم تكن تبغي الكذب عليها فتقول لها أنتي
سعيدة لوجودي في الحقل .

فخشخت الأساور في رسع المرأة العجوز ، وصافحت
سابرينا التي أحست بأن أصابع السيدة تايسن مزينة بالخواتم
الصغيرة والكبيرة كما أنها تتعطر بعطر له رائحة البنفسج .
قالت المرأة العجوز في لهجة أجرة :

عزيري باي . . . اذهب وأحضري شرابا لي وسابرينا . . .
سأتناول شرابي المعتاد وأحضر بنفس الشراب لسابرينا . . .
قالت سابرينا معرضا :

في الحقيقة . . . إنني لا أميل كثيرا للشراب .

ولكن باي كان قد انصرف لاحضار الشراب كما أمرته السيدة
تايسن قبل أن يسمع اعتراض سابرينا . . .
تمتت السيدة تايسن قائلة :

أنا اعتدت على أن أتناول الشاي المثلج . هذا سر بيني
وبينك . يتوقع الضيوف دائما من المضيعة أن تشاركهم
الشراب ، فإذا كفت شعروا بالخرج في مواصلة احتسائه
بحرية ، وحتى أجاريهم أتناول الشاي المثلج الذي يشبه
الشراب تماما لكي ينطلقوا على سجيتهم . استرخي يا
عزيرتي ، فلن أناول أن أطلق لسانك بتناول المشروبات
الروحية .

فقالت سابرينا :

أشك في أنك نستطيعين .

قالت السيدة تايسن :

لك روح مرحة . أحبها . أنا جدة باي هل أخبرك بذلك ؟

قالت سابرينا:

لا..

وأخذت تتساءل هل هذا هو سبب فضول السيدة تاييس بشأنها. قالت المرأة العجوز:

"أبواه يقضيان شهر عسل ثان في أوروبا. ولويس.. أقصد أم باي تعتبر بالنسبة الي من صديقاتي القويات.."

وأيدت سابرينا كلامها قائلة:

"أشار باي الى وجودهما في أوروبا.."

ولم تهمل السيدة تاييس لحظة إذ قالت بسرعة:

"أنا معجبة بعصاك. أظن أنها عاجية... أليس كذلك؟ قطعة فنية ورشيقة أيضا، أين عثرت عليها؟"

قالت سابرينا بتردد:

"إنها هدية... من صديق.."

سألته المرأة في عجلة:

"صديق خاص؟"

قالت سابرينا باقتصاب:

"صديق.."

سألته:

"منذ متى أصبحت غيباء يا سابرينا؟"

"منذ عام تقريبا.."

ورفعت رأسها وكأنها لا تريد أن تطرق أية أسئلة حول ماضيها فسألته السيدة تاييس:

"ومنذ متى تعرفين باي؟"

وبدأت سابرينا تلتقط أنفاسها، إذ كانت تأمل في أن تتحول دقة الحديث الى موضوعات لا تتصل بها شخصا، وعلى أمل ألا تضيق بها المرأة الأخرى قالت:

"حوالي شهرين... يا سيدة تاييس.."

ولم تستطع سابرينا مواصلة الحديث، إذ تمتعت السيدة تاييس تقاطعها: "ها هو قادم بعرفتك به ليست طويلة.."

ثم التفتت وأردفت تقول:

"باي.. شكرا لك.."

وقال باي:

"إنك كائنك يا سابرينا.."

مدت سابرينا وتناولت كأسا مثلها. فاستطرد باي قائلا:

"كيف سارت الأمور بينكما أثناء غيبيتي؟ لأنني أريد أن أعرف.."

١٠٢

ميل رأس سابرينا أكبر دليلا على أنك يا باميلا كنت تنهشين لحم أحدهم.."

وقالت باميلا ضاحكة تصحح قوله:

"لا أنهش لحم أجد يا باي، كنت أحاول أن أعرف المزيد عن سابرينا لديها هالة ملكية.. أليس كذلك؟"

فقالت سابرينا معترضة:

"من فضلك... أنا.."

ولكن السيدة تاييس قاطعتها، لتتم العبارة التي بدأتها سابرينا فقالت:

"...لا أحب أن يدور الحديث عني، أو يتنهد أحد لحمي في غيبيتي وأنا أعرف تماما ما تعنيه يا سابرينا، لأنني أمقتهم وأزدرئهم، وكل ما عنيت لا يعدو أن يكون ثناء.. أنا وسابرينا في غني عن حكم يحكم بيننا.. لماذا لا تتجول يا باي بين الضيوف أو تفعل شيئا؟ اترك سابرينا معي لمدة ساعة، وسأعني بها.."

واستدارت سابرينا في اتجاه باي، وانفجرت شفتاها في رجاء صامت ألا يدعها وحدها. وظنت لوهلة أنه سيعارض طلب المرأة الأخرى إلا أنه قال بصوت هادئ:

"أنت في أيد أمينة يا سابرينا.. سأراك في وقت قريب.."

وزمت سابرينا شفتيها في غضب عندما رحل باي عنهما، لأنه أولا حملها على المجيء الى هذا الحفل الحاشد بالفرباء، وثانيا هو ذا يهجرها لتجابه الموقف وحدها. وسرى الاضطراب تحت سطح عجزها عن الهروب من الموقف الذي وقعت في شركه، وهي تصبح تحت رحمة المحيطين بها..

تأبطت السيدة تاييس ذراع سابرينا وقالت لها:

"هيا بنا يا عزيزتي.. دعيني أقدمك للضيوف، أحاول دائما أن أختار أصدقائي بعناية، وبهذا نتجنب لقاء أي شخص متعجرف.."

وراحت سابرينا تركز على أسنانها في صمت وهي مجبرة على أن تسير في صحبة ضيفتها، ووجدت صعوبة في أن تطابق اسم الشخص على صوته لتعدد الأشخاص الذين تعرفت عليهم.

ولم تجد أية ملاحظة أو تعليق على فقد بصرها، وإنما دار الحديث حول الاستعراض الذي أقيم في دار الأوبرا، وكانت مجموعة من الناس الذين التقت بهم في الحفل قد رأوها.

١٠٣

في المسرح، فسألوها عن رأيها في الاستعراض، وكان اهتمام الجميع بها نابعا من شعور بالود والمحبة وليس شعورا بالشفقة نحوها. وأحسّت سابرينا أن استعدادها للتحضر للدقاع أخذ يتلاشى تدريجيا.

قالت السيدة تايسن بصوت يحمل لهجة الأمر: "تومي لماذا لا تدع سابرينا تأخذ مكانك، وتجلس الى جوار السيدة فيلبس ثم التفتت الى سابرينا وقالت: "ذراع المقعد الى يسارك يا سابرينا."

وكانت سابرينا قد شربت الشاي، فتناول احدهم الكأس من يدها، ولكنها كانت تضيق ذرعا من فشلها في التوفيق بين أسماء الأشخاص وأصواتهم وهذا ما أدركته بامبلا تايسن، فعلمت على توفيق أسباب الراحة لها حتى تشعر أن باي كان على صواب عندما قال أنه تركها في أيد أمينة.

قالت السيدة فيلبس:

"هذا ثوب مذهل للغاية يا آنسة لين." وأدركت سابرينا أن السيدة التي تجلس الى يمينها وتحدثت اليها هي السيدة فيلبس التي قدمنتها لها بامبلا. وأردفت السيدة فيلبس تقول:

"لاحظته وأنا في المسرح." وواصلت السيدة فيلبس تطري الثوب بإسهاب، وأشارت الى أنها تجد صعوبة في العثور على ثياب تناسب قوامها، وأصغت لها سابرينا دون أن تقطع عليها حديثها المسترسل.

وبدأت سابرينا تشعر بوخز خفيف في المنطقة الحساسة من ظهرها وأدركت في الحال السبب. كان باي كامبيرون يقف في مكان ما بالقرب منها ولم يخطيء احساسها مطلقا ولكنها تظاهرت بالاهتمام بحديث المرأة، بينما كانت أدناها مشدودتين الى التقاط صوته ليحدد لها مكانه.

وفجأة سمعت صوتا أجسا مألوفاً لها لأحدى السيدات، ولكنها لم تستطع تحديد المكان الذي استمعت فيه إليه. قال الصوت:

"عزيزي باي. لم أتوقع رؤيتك هنا؟"

وأجاب باي بهدوء:

"كانت مفاجأة لي أيضا أن ألتقي بك هنا. ظننت أنك لانهتمين كثيرا بحفلات بامبلا. فهي تمتاز بأنها أكثر هدوءا من تلك الحفلات الصاخبة التي ترتادينها."

قال الصوت:

"يمكن للفتاة أن تغير رأيها."

فقال باي:

"وفي وسع الرجل دائما أن يتساءل لماذا؟"

قالت:

"رأتك عصفورة صغيرة في المسرح الليلة، وأفضت بكلمة في أذني، فتكهننت بأنه من المحتمل أن يحضر عليك الصغير الى حفل بامبلا."

فسألها:

"وهل صدق حديثك؟"

قالت:

"لا أظن أنني أدرك سر هذا الفيض من الاحسان الذي تغدقه عليها أعني... لماذا تهتم اهتماما شخسيا بهذه المسكينة؟ لماذا، لا تمنحها قدرا من المال تنفقه بأسلوبها؟ يمكنك أن تتدبر الأمر." وتجمدت سابرينا في مقعدها. ولم تحتل أي تجريح لكرامتها، وها من شك في أن فقد بصرها أكسبها حدة السمع، وهي وحدها دون الآخرين استطاعت أن تسمع الحديث الذي دار بين الفتاة وبين باي.

تجتم باي بصوت منخفض:

"هل هذا هو جلك للموقف يا روني؟ عندها يعالج الناس موضوع الرحمة والرافة والشفقة، أنت وحدك تتراجعين الى صفوف الذين يتحدثون عن العذاب والألم والفضب."

روني هذا اسم الفتاة التي كانت بصحبته عند ميناء الليخوت في ذلك اليوم. وتذكرت سابرينا أن باي قال أنهما سيتوجهان للاستمتاع بحمام شمس في عرض البحر، وقضاء وقت شاعري.

وتكلمت الفتاة التي تدعى روني ثانية:

"من السيء جدا أن تكون عاطفيا يا باي."

وكان صوتها همسا، لم تقو سابرينا على التقاطه إلا بصعوبة. فقال لها:

"ليس في كل الأحوال."

وشعرت سابرينا بأنه مسرور وبدأ الدم يغلي في عروقها، والتوتر يغور بحرارة في أطراف شرايينها. وانتابها احساس بأن الفتاة قد تحركت واقتربت منه في ود ومحبة لتقول له:

"أخبرني يا عزيزي، هل تحاول أن تستغل فتاة عمياء"

لكي تثير غيرتي؟ ألا يبدو هذا السلوك مثيرا للضحك؟ فقال
باي دون أن ينفي عنه التهمة:

"لماذا؟ إنها فتاة جذابة."

وعادت روني تذكره قائلة:

"ولكنها عيياء، أعرف أنك تشعر بالأسف لها، ولكننا نشعر
بالشفقة لمن هم أقل حظا منا، كم قاس على فتاة مثلها أن
تكتشف أن كل اهتمامك بها لا يعدو أن يكون شفقة، لا أعتقد
أنها سوف تشكر."

فقال باي متراجعا:

"أنا أعرف سابرينا، إنها قد تصفع وجهي لو..."

ولم تستطع سابرينا أن تلتقط بقية عبارته، فقد سمعت
ماكفاها وتقلصت أبعادها، فشمرت بالأم حادة تجزق
أحشاءها، وراح غثيان يجتاح جسمها في حلقات موجعة،
ونفضت لتقف على قدميها دون أن تكثر لحديث السيدة
فيليس المسترسل، وقاطعتها قائلة:

"أعذريني يا سيدة فيليس."

ثم التفتت ونادت:

"سيدة نايس!"

وأسرعت مضيقتها بالوقوف إلى جانبها وقالت لها:

"نعم يا سابرينا."

وابتلعت سابرينا ريقها، وهي تحاول أن تهدي من
أعصابها المتوترة، وأن تجعل صوتها يبدو طبيعيا ما أمكن.
سألته:

"هل يمكنك أن تقوديني إلى حجرة التجميل؟"

"طبعاً - هذا هو الطريق، تعالي معي."

وأمكن السيدة نايسن بيدها، وسحبتهما من وسط
المجموعة الصغيرة وسألته باهتمام شديد:

"هل أنت بطير يا سابرينا، يبدو وجهك شاحباً، هل أنت
والقة من أنك بخير؟"

واجتهدت سابرينا في أن ترسم ابتسامة على شفتيها وهي
تهيب:

"بالتأكيد أنا بخير."

تناهت ألبها الأصوات في الشرفة عالية النبرة، وحاولت أن
تصم أذنيها في يأس نصت عن سماعها.

قادت باهتلا إلى حجرة التجميل، وأخيراً قالت لها:

"ها قد وصلنا الباب إلى يسارك مباشرة."

توقفت سابرينا، وحددت بطرف عصاها المسافة التي تقع
بينها وبين الباب قبل أن تستدير إلى مضيقتها وتقول:

"شكراً لك يا سيدة نايسن."

وقالت لها السيدة بتردد:

"هل ترغبين في أن أدخل معك؟"

كانت سابرينا تنشد الانفراد والهدوء، حتى تستجمع
جوارحها المضطربة لذلك قالت لها:

"لا... ليس ضرورياً."

"إذن سأنتظرك خارجاً."

فقالت سابرينا بسرعة:

"لا، إنني أستطيع أن أعود وحدي، ولا يمكن أن أبقيك بعيداً
عن ضيوفك أعطيني فكرة عن مكاني، وسوف أجد طريق
العودة، لا خوف علي... مادمت أتبع الإرشادات."

وترددت السيدة العجوز قبل أن ترشد سابرينا إلى طريق
العودة إلى مكان الرئيسي للحفل وشكرتها سابرينا متأكدة من
رحيل مضيقتها، وأنها لم تعد تراقبها، وتبينت أن الغرفة لا
يشغلها أحد سواها، وأصبحت ملكاً خالصة لها، كما أن الباب
المغلق قد خفف الأصوات التي ممرمة ضعيفة.

وبدأت تستكشف المكان بمصاها، ولمست بطرفها ساق
المقعد فأطلقت زفرة عميقة وهي تغوص بجسدها في الوسادة
الصغيرة المخملية وعثرت على منضدة أمامها أراحت ذراعيها
على سطحها الأملس، ولم يساعدها الصمت المطبق في التوقف
عن الاستغراق في أفكارها.

كانت دائماً تتعجب، وكانت دائماً تتساءل عن السبب الذي
يدفع باي إلى روعتها، كانت بينها وبين نفسها توقفت عن
الاعتقاد بأنه يراها بدافع من الشفقة، لكنه منذ لحظات
استعمل كلمة الرحمة والراقة ومع أن هذه الكلمة الأخيرة التي
تعد أقل تجريحاً لها، إلا أنها لم تحقق من الطمينة النجلاء التي
تلقتها عن الحديث الذي استمعت إليه منذ قليل وعندها أمضى
أمسية أو أمستين خلال الأسبوع الماضي لم يكن بدافع المطف
وحده وإنما اتخذها وسيلة لكي يثير القيرة في قلب روني.

وأطبقت أصابعها في قبضة شديدة، ولمعت قدرتها الحادة
على السمع، وتعددت في صمت ولكن لا... إن صوتاً

في داخلها أخذ يؤنبها كان عليها أن تشعر بالسرور لأنها نظرت إليه كصديق وليس أكثر من هذا، وتبينت حقيقة أمره قبل أن تخطيء تفسير اهتمامه بها. كم هو رهيب لو أنها بدأت تهتم به كرجل!

وبرزت أمامها مشكلة! ماذا تتوقع أن تكون الخطوة التالية هل يتحتم عليها أن تواجهه بما عرفته؟ هذا ما تريد أن تفعله. إنها ترغب في أن تلقي بكلمات الاحسان والشفقة في وجهه، ولكن ما النتيجة التي تتوقعها. أنه سوف ينكر ببساطة كما فعل في المرات السابقة.

كانت سابرينا تعرف أن باي كامبيرون شخص بارع الذكاء، بعيد النظر وهذا أمر يتحتم عليها عدم مناقشته وقالت لنفسها انظري الى الطريقة التي دفعك بها الى قبول العصا العاجية التي تستعملينها الآن، ثم تناول العشاء في المطاعم العامة، وأخيرا الحضور في هذه الليلة الى الحفل حيث تلتقيين مجموعة من الغرباء. حسنا أن هذا الحفل أشعل النار في الموقف. والآن أدركت حقيقة الألوان التي يتلون بها سلوكه.

وانفتح الباب، ودخلت امرأة حيثها بصوت كان مألوفاً لديها، ولكن سابرينا لم تستطع أن تتذكر اسمها، وبلا وعي تحسنت الشعر المرسل على كتفها وهي تنظاها بتسوية مظهرها أمام المرأة، على أمل ألا تظل المرأة مدة طويلة في الغرفة، ولسوء حظها مكثت المرأة، وكانت كل دقيقة تمر تدق في رأسها دقا عالياً.

وعندما رحلت المرأة قررت سابرينا ألا تطيل مكوثها حتى لا تثير الشك فقد ظلت في الغرفة فترة معقولة، ولا ترغب في أن ترسل السيدة تايسن أحدهم للسوءال عنها. وتمنت وهي تقف على قدميها لو أنها تستطيع أن تتسلل من المنزل، لأنها لا ترغب في الرجوع الى الحفل، حيث أصبحت الأصوات كابوساً يؤرقها.

سالت نفسها عن وجهتها وهي تفتح الباب المؤدي الى القاعة. إذا نجحت في التسلل فحينها هناك احتمال ضعيف في العثور على سيارة أجرة تقوم بجولة في هذه المنطقة، أما إذا فشلت في محاولتها في التسلل وعادت مع باي في سيارته، فإنها تشك كثيراً في أن تمسك لسانها ولا تتحدث معه خلال عودتها الى البيت.

وكان تفكيرها مركزاً في البحث عن وسيلة للتسلل،

عندما تعثرت في منضدة صغيرة. كانت موجودة بجوار أحد جدران القاعة. وبحلت يدها غريزيا عما قد يكون موجوداً فوقها حتى تحول دون سقوطه على الارض، فعثرت على زهرية بدأت تتأرجح فأسرعت بتثبيتها. وعندما شرعت في سحب يدها اصطدمت أصابعها بجسم ناعم، مألوفاً لديها، وكان الجسم سماعة تليفون.

أخيراً... وجدت حلاً لمشكلتها!

التقطت السماعة، وأدارت سريعاً بأصابعها قرص الهاتف تطلب الدليل ليعطيها رقم إحدى شركات سيارات الأجرة، ولم تحاول أن تفقد ثانية التفكير وطلبت رقم هاتف الشركة. وعندما سمعت صوت مسؤول الشركة قالت له بأدب:

"من فضلك... هل يمكنك أن ترسل..."

وتوقفت سابرينا عن مواصلة الحديث. لم تكن تعرف أين هي الآن، وانتشلتها من حيرتها صوت أقدام تقترب فقالت للمسؤول:

"انتظر قليلاً..."

والتقطت نفسها عميقاً، واستدارت نحو الشخص القادم وسألت:

"من فضلك... هل يمكنك أن تخبرني بعنوان هذا المنزل؟"

فأجاب صوت سيدة قائلًا:

"أجل يا سيدتي..."

وأعطتها عنوان المنزل. وكان الأدب الجرم الذي التسم به الصوت النسائي دفعها الى أن تسألها:

"هل أنت الوصيقة؟"

قالت السيدة بصوت ينم عن أنها لاحظت العصا البيضاء في ذراعها:

"أجل يا سيدتي..."

فسألتها سابرينا:

"هل يمكنك أن تأتيني بالسترة؟ إنها مصنوعة من الغراء الأسود..."

"حالا... يا سيدتي..."

وعندما ابتعدت عنها الأقدام، رفعت سابرينا يدها من فوق السماعة وأعطت للمسؤول العنوان، ووعدتها بوصول السيارة بعد دقائق قليلة. ووضعت السماعة في مكانها، واستدارت لابتعد عن المائدة وهي تشعر بالانتصار الذي حققته.

وسمعت خطوات تقترب منها من نفس الاتجاه الذي رحلت منه الوصيفة منذ لحظات ولم تكن سابرينا على يقين من أنها الوصيفة، فتوقفت أنفاسها وهي تخشى أن يكتشف أمرها باي أو السيدة تايسن بين لحظة وأخرى، ولكن الخطوات كانت للوصيفة عندما قالت لها:

"إليك السترة يا سيدتي، هل أساعدك على ارتدائها؟"
فوافقت سابرينا بعصبية:
"من فضلك."

وساعدتها الوصيفة على ارتداء السترة وسألتها:
"هل أخبر السيدة تايسن برحيلك؟"
فكذبت سابرينا عليها قائلة:

"لا... ليس ضروريا، أنني أخبرت السيدة تايسن برحيلي منذ فترة. ستصل سيارة أجرة حالا. سأنتظرها في الخارج. هل يقع الباب الخارجي أمام الصالة مباشرة؟ فقالت الوصيفة:
"أجل يا سيدتي، ولكن الضباب كثيف هذه الليلة، وخير لك أن تنتظري في الداخل."

كانت سابرينا تخشى أن يكتشف أمرها، وهي على مقربة من تحقيق هدفها فقالت:
"أفضل أن استنشق بعض الهواء الطلق."
قالت الوصيفة مستسلمة، وهي تسحب هي هدوء:
"حسنا يا سيدتي."

وأخذت تتحسس بسرعة سبيلها بما تسمح به عصاه، وأحسّت أنها تقوم برحلة طويلة وهي تقطع المسافة التي تفصل بين الصالة والباب الخارجي وكانت راحتها تتصببان بالعرق وهي تفتح الباب، وتنطلق في الظلام.

وهذا الهواء البارد من أعصابها المضطربة، وتحركت بعيدا عن الباب وهي تتلمس الأسوار القائمة على جانب المدخل. كان الضباب ثقيل الوقع على وجهها، وجدران المنزل الكثيف تحول دون بلوغ الأصوات إلى مسامعها.

وشاعت ابتسامة عريضة على شفتيها وهي تتخيل اضطراب باي عندما يكتشف رحيلها، سيدفعه احساسه بالشفقة إلى بذل الكثير من أجل سلامتها، ولكنها كانت تعلم أنه لن يمضي الوقت الطويل قبل أن يسأل الوصيفة عنها، سوف تخبره أن سابرينا استقلت سيارة أجرة، وسيغضب ولكنها لن تأبه كثيرا لغضبه. ومهما كانت تدين به لمساعدته لها،

وصداقته المزعومة، فإنها قد سدته له الليلة على أكمل وجه. وأحسّت أن الوقت يمضي بطيئا، وكان يتضاعف في نظرها عندما كانت تنتظر بقلق حدوث شيء، وظلت وراء الأسوار حتى لا يراها أحد المدعوين ممن يهتمون بمقادرة الحفل مبكرا. وفجأة سمعت صوت محرك سيارة مقبلة عبر الطريق، وتمهلّت حتى تعرف ما إذا كانت السيارة قد وقفت أمام المنزل أم استمرت في سيرها ولكنها توقفت عند المنعطف، ودوى صوت قفل الباب.

وعندما خطت سابرينا إلى الأمام سألها صوت رجل برقة:
"هل طلبت سيارة أجرة يا سيدتي؟"
قالت:
"أجل."

وسارت بسرعة نحوه، وكان الانتصار يحمل خطواتها على أجنحته وانفتح باب السيارة واستخدمت الصوت في تقدير المسافة، وأمسك الرجل مرفقها بيده ليساعدها على الدخول إليها. فأردفت تقول:
"أريد أن تأخذني إلى..."

ولم تستطع أن تنفوه بعنوان بيتها، وتوقفت الكلمات عند طرف لسانها عندما سمعت باب المنزل يفتح، وارتجفت حتى وقف شعر رأسها، وتجمدت أطرافها حتى عجزت عن الحركة، وبذلت المحاولة لكي تدلي بالعنوان، فليست هناك فسحة من الوقت، ولكن خطوات باي كانت أسرع منها.

وعندما حاولت أن تنزلق إلى المقعد الداخلي، التفت ذراع حول خصرها واستقرت يد فوق بطنها تحول بينها وبين دخول السيارة، وتجذب جسمها إلى الرصيف.
قالت صارخة:

"دعني أرحل."

وراحت تقاوم ذراعه الصلبة التي أمسكت بها بشدة فأمرها باي:
"التزمي الهدوء يا سابرينا."

وسمعت صوت حفنة من النقود تخرج من جيبه وهو يقول:
"أنا آسف لا ستدعائك بلا ضرورة. سأخذها أنا إلى بيتها."
فأعترضت سابرينا بشدة وقالت:

"لا أريد أن أذهب معك."

ووقف السائق ساكنا، وكانت تعلق أملا في أن يصبح

حليفا لها فوجهت إليه حديثها:

"أرجوك... أخبر هذا الرجل أن يدعني لوحدي".

فسألها باي بأدب:

"هل تطيبين من الناس التدخل في خلافاتنا؟"

وكان سؤاله إشارة إلى وجود خلاف بسيط بين رجل وامرأة، وقدم باي اعتداره للسائق وأخبره بأنهما في غنى عن مساعدته.

وتناول السائق النقود متمنيا حظا سعيدا لباي، وعندئذ أدركت سابرينا أن محاولة الهروب قد باءت بالفشل. وتوقفت عن التصال من أجل إطلاق سراحها من القبضة الحديدية عندما سمعت السائق يفلق الباب الخلفي للسيارة، ويلتف حولها متجها إلى الجانب الآخر منها.

وأدار باي جسمها يمينا فاستقرت يده على جنبها عندما أجبرها على السير بعيدا عن السيارة التي شرعت في الرحيل. ولم يحاول أن يعود بها إلى المنزل وإنما اتجه بها إلى سيارته التي كانت تقف عند المنطفء الواقع على بعدة من الطريق. وسألها بتجهم:

"هل يمكنك أن تقدمي لي تفسيرا لكل ما حدث؟"

فأجابت سابرينا:

"بالتأكيد الأمر واضح للغاية. أنا عائدة إلى البيت".

قال:

"إذا كنت ترغبين في الرحيل، لماذا لم تبحثي عني وتخبريني برغبتك؟ لم أقل أنه من المحتمل البقاء في الحفل حتى آخر دقيقة".

وشعرت بأصابعه تغرز في خصرها. فقالت بعنف:

"لا أريد منك أنت أن تأخذني إلى البيت. هذا هو التفسير".

قال بغضب بدا واضحا في صوته:

"إذن كان يتحتم عليك ترك عصاك وراءك حتى لا يفتن أحد إلى رحيلك؟"

ورفضت أن يوغز إليها بالفكرة بهذا الأسلوب فقالت له:

"لو تدبرت الأمر... لكنك فعلت..."

سألها:

"لماذا ترفضين فجأة أن آخذك إلى البيت؟"

فقالت سابرينا بغطرسة:

"لا حاجة بي إلى تقديم أي تعليل".

أخبرها بكبرياء:

"أجل... لا حاجة بك، ولكن أنا في انتظار سماع هذا التعليل اليوم".

وصمت سابرينا برهة، وشاركها باي صمتها، ولكنها تحدثت بجرأة وهي تميل نحوه برأسها ليري الكراهية في ملامح وجهها. وأخيرا خرجت من صمتها، وقالت:

"لأنني صقت ذرعا بشفتك نحوي ووصايتك علي أنني لا أحتاج إليك أو لأي شخص يشعر نحوي بالأسف".

قال:

"ماذا تقولين؟"

واستطاعت أن تحصس بالتجهم في نبرة صوته:

قالت بصوت يشوبه الاضطراب:

"اذهب وأنضم إلى فريق الكشافة".

واستمرت باضطراب:

"لقد سمعت حسناك".

فانفجر قائلا:

"الشغقة! هل هذا ما تفكرين أنه شعوري نحوك".

فغصرت سابرينا فمها لتقابل توتره بالمثل، وفي اللحظة التالية اندفعت نحوه. فأطاح عنف الحركة بعصاها لتقع على الرصيف وشعرت بذراعه تحيط منكبيها وتنهزها بعنف ومن ثم ضمها بقسوة إلى صدره.

فقالت تنهيه بهمس البعث بين أنفاسها المتقطعة:

"أنت قاس... ومستبد... يا باي كامبيرون".

فقال بكلمات قاسية تحمل على أطرافها نبرة السخرية:

"لا بد أن أشتق مثل قديس أخطأ".

وكما بدأت الأحداث فجأة... انتهت بأن أمسك باي بذراعها، وشعرت بأن توازنها قد اختل تماما. وانقلبت الأمور رأسا على عقب، إنه عالم مقلوب الأوضاع عاشته في دنياها المظلمة، وهذا كله بسبب باي، قال لها:

"ادخلي السيارة".

وكانت ردة فعله أشبه بصفعة قاسية على وجهها. وبالرغم من الهزة المفاجئة التي أعادتها إلى الواقع إلا أنها لم تقو على الحركة فاضطر باي في النهاية إلى أن يجرها... ويحملها... ويضعها في المقعد ولم يعد إليها صوتها حتى استقر باي في مقعده وراء عجلة القيادة، وبدأ في

الابتعاد بسيارته عن المنعطف . فقالت :

”باي...“

وكان صوتها ضعيفا لا يعدو أن يكون همسا ولكن باي قاطعها قائلاً :

”اصمتي يا سابرينا...“

وأحست من نبرة صوته أن كلماته كانت تخرج من بين أسنانه .

٨ - رحلة بحرية

أطاعت سابرينا أمره .. فلم تتفوه بكلمة خلال طريق عودتها الى المنزل . كان الجو متوترا ، والخوف الشديد من مجرد التفكير في الحديث يؤرق مضجعا . لم يكن الخوف من تنفيذ وعيده ، وإنما كانت تخاف من نفسها ، من أن تضعف أمامه .

فما زالت تشعر بضربات قلبها وكأنها تركب قطارا سريعا لا تستطيع الوثوب منه . منذ أن ضمها الى صدره بعنف . وكان اسوأ ما في الامر أنها لم ترغب في أن تمحو ذكراه . وكان ذلك سبب الخوف الذي دام يطاردها يومين عقب ما حدث في بهيم تلك الليلة . ساءت نفسها مرة وجرة لماذا استعمل معها تلك الطريقة ؟ هل هو الغضب أم رغبته في تغطية فشله .

وكان هذا جو التفسير الوحيد عن تساؤلها .. في إطار الحديث الذي استمعت اليه في الحفل ، ومن المحتمل أن يكون هو الرابطة بين أشياء عديدة .

ولم تضع سابرينا في اعتباره أن يكون الحب هو الدافع لأنها لا تعتقد بأن الزمن سيجود عليها برجل ما تلتقي به .. يحبها حقا .. ويرغب فيها ، كما أنها لا تتصور أن يكون باي كاحيرون هو .. هذا الرجل . فإن باي له مكانته وثورته وجاذبيته ومظهره ، وهناك العديد من السيدات يتقن الى الوقوف بجواره بإشارة من أصبعه .

إن فقد بصرها مس قلبه ولا أهمية للصفة التي توصف

بها عاطفته نحوها هل هي الشفقة .. الرحمة .. الخنان .. كل هذه الصفات واحدة ، ومن منبع واحد .

واعتمر الألم قلبها ، وحدثتها كبرياؤها بأنها لا تستطيع أن تغتر بأي صديقاً ، لأن الصديق ربما يرثي لحالها ، ولكنه لا يسعى إلى صحبتها لمجرد أنه يشعر بالأسى لها . وعرف قلبها السبب الرئيسي الذي يدفعها إلى أن تلفظ بأي من حبايتها . فقد توقفت عن التطلع إليه كصديق ، وبدأت تفكر فيه كرجل ، وكان هذا التصور غباء منها .. مذمراً لها .

وتراقص نسيج على أوتار حلقها .. هزها من مفرق رأسها إلى أخمص قدميها ، ولم تتذالك سابرينا نفسها ، فألقت بوجهها بين راحتيهما ، وهي تشعر بالتعاسة والوحدة وتشعر بالأسى لنفسها ولا تأسف لها .

وبن جرس الهاتف ، قبل أن تطلق العنان لدموعها ، وأنكرت سابرينا رئيسه الذي استمر فترة . وكانت ترغب بتجاهله ، فتركته يواصل الرنين حتى يسأم المتصل ، ويكف عن طلب مكالمته . ولكن سابرينا خشيت أن يكون أبوها هو المتصل ، وأدركت أنه ليس من حقها أن تتسبب في إزعاجه ، فنهضت ورفعت الساعة ، وقالت بصوت هادي :

"منزل لين ."

"سابرينا ."

كان صوت باي المتخفص هو الذي بلغ مسامعها ، هاهتزت له حتى كادت الساعة تسقط من قبضتها ، وسرى في أوصالها حتى زلزل ركبتيها فأسرعت تبحث عن مقعد لتستند إليه . سألتها صوته الغاضب عندما تقاعست عن الإجابة بسرعة :

"هل أنت منصتة لي ، يا سابرينا ؟"

قالت بصوت متوتر :

"أجل .. أهلاً .. يا باي !"

سألها :

"كيف حالك ؟"

ولم يكن سؤاله عرضياً ، وإنما كان يشوب نبرته الحذر .

قال بصوت بعيد ولكنه مهذب :

"حسن .. وأنت كيف حالك ؟"

ولكن باي تجاهل نساء ولها وقال :

"أنت تعرفين لماذا طلبتك ، أليس كذلك ؟"

فسألته بعدم اكتراث :

"وكيف لي أن أعرف ؟"

سألها :

"هل تتناولين طعام العشاء معي مساء السبت ؟"

كان اقتراحه تحدياً وتوارد إلى ذهنها أن باي يختار دائماً ليلة السبت ، لأنها الليلة التي يخصص فيها أبوها وقته لخطيبته ديمورا . وكانت سابرينا تفضيه في أغلب الأوقات وحدها قبل أن تتعرف على باي . وتذكرت أنها طلبت بالأمس صديقها القديمة سالي جودين لتمضي معها أمسية السبت . فأجابته بصوت كله صدق يتسم بنغمة الانتصار :

"لقد اتفقت مسبقاً على عدة لقاءات ."

فقال ساخراً . كأنه يثير الشك في كلامها :

"أحقاً كذلك ؟"

قالت سابرينا مستدركة :

"إنني أعرف أشخاصاً آخرين سواك يا باي ."

فسمعت شهيدة غاضبة عبر الهاتف ثم قال :

"هل أفهم من ذلك أنك نظمت مواعيدك لتكوني مشغولة مساء السبت ؟"

فهزت كتفيها وقالت بصوت لا يتم عن التأيد أو النفي :

"أفهم كما تحب !"

"هل أفهم أيضاً أنه بسبب عصبي في تلك الليلة ، اتخذت قرارك بعدم رؤيتي مرة أخرى ؟ لقد أثرت عصبي عندما هربت من المنزل دون أن تترك رسالة تبني . من رديك . وكان من المحتمل أن أخبرك ولكن فضلت ألا أفعل ذلك ."

كان باي قوي الإقناع في حديثه ، ولكنها لم تنح له الفرصة لكي يتحكم فيها .

فقالت له :

"فعلت ما فعلت وليس هناك مبرر لأي مزيد للحديث عنه ."

فقال بكبرياء :

"إذن .. هذا قرارك ، إنك لا تريدان رؤيتي مرة أخرى . هل هذه اللحظات القلقة التي انتابني الفضب فيها تمحو كل ذكريات الساعات السعيدة التي أمضيها سوية من قبل ؟ هل هذا عدل ؟ ألا تعني شيئاً لك ؟"

وكان عليها أن تجيب على تحديه فقالت له ببرود :

"أجل كانت تعني شيئاً لي .. حتى فقدت معناها باكتشافني أنك تشعر بالأسف لي . وقد سبق أن قلت لك أنني

في غنى عن شفقة أحد.

*من هو ذلك الشخص ذو التفكير السديد الذي يشعر بالأسف نحو فتاة مثلك لها رأس اسد، وعقل طفل مدلل؟ فكثيرا ما تحاولين يا سابرينا إجراء اختبار لمتحنيين به صبر الرجل. كم مرة يجب أن أؤكد لك إنني لا أشعر بالأسف نحوك، قبل أن تصدقيني؟

فسألته متجدية:

*إذن فسر لي سبب رغبتك في رؤيتي.

أجاب باي بتجهم:

*هل يجب أن يتوفر دافع بالغ الخطورة حتى أطلب رؤيتك. ألا يمكن أن يفسر هذا الدافع بأنني...
وتمهل لحظة ليختار الكلمات التي يكمل بها عبارته...
واستطرد يقول:

*معجب بك، أو بشجاعتك عندما تكونين عنيدة بتعقل. ولكن دعيني أوجه سؤالاً على النحو التالي: لماذا ترعبين أنت بمصاحبتي خارجاً؟ هل أنا وسيلة مريحة للاتطلاق معك بعيداً عن المنزل؟ هل تصيرين علي لأنني أصبحك إلى الأماكن التي ترعبين في ارتيادها؟ ما هو دافعك البالغ الخطورة يا سابرينا؟

فأجابت وقد تراجعت أمام هجومه:

*أنا... أنا ليس لدي أي دافع.

فقال ساخرا:

*أهدئي. لا بد أن يكون لديك دافع. يجب أن يكون لديك سبب للخروج معي.

قالت سابرينا بإصرار ولكن الارتباك كان ياديا في صوتها:

*لا... ليس لدي... أنا تمتعت بالخروج معك... ليس لدي...

فقاطعتها باي:

*وأنا أيضا استمتعت بصحبتك.

وهنا قارعه بـ سؤال علها تستعيد الموقف لصاحباها:

*كيف كان ذلك؟ أنا فتاة لها رأس اسد وعقل طفل مدلل. أنت قلتها بنفسك.

فأجاب عليها بمرح ساخر:

*هكذا؟ وأنا متكبر ومستبد. أنت قلتها لي بنفسك. أصبحنا متساويين.

وداعبت ابتسامة شفقتها، وأصبح موقفها خفيفا

وشعرت بإصراره الخازم يتسلل تحت سخر جاذبيته، ومنطقه بالغ الإقناع، فقال لها متهما إياها:

*أنت تبتهمين يا سابرينا. أليس كذلك؟ لا تكلفني نفسك بالإجابة. أعلم أنك ستنكرين ذلك. لن أسألك إلغاء مواعيدك التي أعددتها لمساء السبت، ولكن في وسعك أن تصحبيني يوم الأحد في رحلة بحرية.

*رحلة بحرية؟

رددت كلماته بوهن... كانت تجادل حول مختلف أنواع الدعوات، إلا الرحلات البحرية. كانت سابرينا تعشقها وتقف عاجزة أمامها ولا ترفضها.

كرر باي كلامه بصبر:

*أجل... رحلة بحرية.

*أنا...

ولم تستطع أن تنبس بكلمات الرقص.

فقال باي:

*سأمر لعندك في وقت مبكر من صباح يوم الأحد... حوالي الساعة، سنمضي وقتا طيبا.

وتعثرت كلمات القبول على طرف لسانها وهي تنطلق من فمها لتقول:

*أنا... سأكون... مستعدة.

فأجاب باي مؤكداً:

*السابعة صباحاً، يوم الأحد.

ووضع الساعة في مكانها، وكان لسان حاله يقول إنه سيكون هو أيضا مستعداً لهذا اللقاء. ولم تحاول سابرينا أن تستبدل فكرة الرحلة بغيرها.

حتى فكرة موافقة أبيها على الرحلة تمت في نفس اليوم الذي تحدث فيه مع باي. ففي المساء التقت بأبيها، وعندما أخبرته بفحوى دعوة باي لها، قال:

*أجل... اتصل بي باي بعد ظهر اليوم ليتأكد من عدم وجود أي اعتراض لدعوته لك، وأخبرته أنه ليس لدي أي مانع. وأعدك بأنني لن أقلق عليك، لأنك بين أيد أمينة، هذا بالإضافة إلى أن باي سباح ماهر.

وجاء صباح الأحد... ووجدت سابرينا نفسها على متن يخته "فورشن ليدي"، وقد أضر الضباب والرياح موعد مفارقتها الحيناء بنحو ساعة، وأخيراً شق عباب الغاء، وداعبت نسيمات

سانتاكورزه، ورأيت أن نلقي بمرسانا جنوب سانتاكروز
لنتناول طعام الغداء. هناك خليج صغير هاديء أعرفه، أرجو
ألا يكون أحد غيرنا قد اكتشفه بعد.
والقى باي بالمرساة، وهدت سابرينا يد المساعدة ما
أمكنها وكان حفيف الماء الهاديء الذي يتلاطم مع اليخت هو
الصوت الوحيد الذي تسمعه، واستدارت ليتحدث إلى باي.
كانت تشعر بنظراته تدملق في وجهها، وسرى دفة نديء في
أوصالها، وفجأة انتابها إحساس قوي بأنهما وحدهما في هذا
المكان. رجل وامرأة، ولكنها سريعة ما كبحت جماع هذا
التفكير الذي راودها، وقالت فجأة:

"سأهبط إلى داخل اليخت لأعد الطعام، ماذا أحضرت؟"
أجاب باي:

"ساندوتشات وسلطات. كلها جاهزة. ما رأيك في السباحة
قبل أن نتناول الطعام. الماء أدفا هنا منه في الساحل، ولا
توجد أية شيارات خطيرة."

فهرت سابرينا كتفيتها ترفض اقتراحه، قائلة:

"أسفة، لم تسألني أن أحضر لباس البحر، ولم أفكر أنا في
[حضاره]."

ورفض باي عذرها وقال:

"لبس هذا مهمما، إنني أحفظ عند من نزلت البحر في اليخت
لعواجزة أي فارق طاحلي. من أجل صحتي السباحة في البحر.
وأنني على يقين من أن أحدها سوف يناسبك."
ولكن...

ولم تتم عبارتها... فقد تذكرت أنها لم تلبس قدامها ماء
البحر منذ الحادث. فسألها باي:

"ولكن ماذا؟ يمكنك السباحة، أليس كذلك؟"

فابتلعت ريقها وقالت:

"أجل... أستطيع السباحة."

قال:

"سأحدد لك الاتجاه الصحيح للسباحة، خني إلى عرض البحر.
أذهب وبدي ثيابك."

وأخبرها باي بمكان ثياب البحر، وهبطت سابرينا إلى قاع
اليخت، فقد رأت أنه من الأفضل لها أن تسبح، بدلا من البقاء
مع باي على اليخت.

وكانت أغلب ثياب البحر من قطعتين، فاختارت سابرينا
لباسا مناسباً من قطعة واحدة، وأحسست أن هذا الشوب

الهواء الوشاح الذي يحيط برأس سابرينا، وتناثر رذاذ الماء
على شفتيها، وعندما عبر اليخت من تحت جسر غولدن غيت،
أدار باي الدفة لتتطلق إلى عرض البحر، وتجاوز كليف هاوس
وسيل روكسي، واستمر في سعيه فيما وراء شواطئ المحيط،
وكان التيار الجنوبي يحول دون استمتاعهما بحمام الشمس.
وكالعادة، تعلقت سابرينا بطوق النجاة الذي ثبت في
وسطها، من قبيل الحيطه والحذر. وكان سطح اليخت يميل مع
تلاطم مياه المحيط إلا أن باي كان يستعين بخبرته في
استغلال كل هبة ريح في تسيير دفة يخته.

وتناهى إلى مسامعها صوت الريح وهي تترار في القضاء،
والأمواج وهي تتلاطم فوق اليخت الذي راح يزحجر وهو يشق
عباب البحر. وبالكاد تبادلت كلمات خمس مع باي منذ
مفادرتها ميناء اليخوت، فقد بدا لها الحديث غير ضروري
في هذا الهدوء الجميل الذي ساد تلك اللحظات، حيث أحس
فيها كل منهما بالسعادة دون أن يفرضي بها أحدهما للآخر.

ومضى بعض الوقت قبل أن تلاحظ سابرينا أن باي غير
مسار اليخت، إذ أحست أن الشمس لم تعد في المكان الذي
كان اليخت يسير صوبه، والتفت إلى باي وسألته:

"أين نحن يا باي؟"

فقال مبتسما:

"في مياه مونتيري باي بالقرب من سانتا كروز. هل تحلمين
أحلام اليقظة؟"

وفي التو أخذت تتصور ملامحه القويء، الملوحة بأشعة
الشمس والرياح، وشعره البني الميلل بالعطر وقد شعته
النسيم، وعينييه تحت وطأة ابتسامته التي أحست بها في
نبرة صوته، وكان مثيرا لها أن صورته في خيالها واضحة
مملوءة بالحيوية والرجولة.

وخفق قلبها في ضربات سريعة، فتعنت قائلة:

"أحلام اليقظة أم أحلام البحر... لا أدري أيهما؟"

وأحست مرة ثانية بتغير اتجاه اليخت، فالريح لم تعد
تمسك بتلابيب الشراع، وتباطأت سرعته، وسطحه بدأ يعتدل
تحت قدميها وسألته:

"ماذا تفعل الآن؟"

"تقرب باليخت من الشاطئ، لقد تجاوزت الصور الطبيعية
ساحل"

أقل عريا عندما سارت به فوق سطح اليخت، وأرسلت شعرها الطويل فوق ظهرها، وتعاقدت خصلاتها حول كتفيها، وحلت العقدة المعقودة فوق رأسها قبل أن تحررها مياه البحر. قالت بعصبية:

أنا مستعدة.

ولم يعقب باي على مظهرها، وقال:

وضعت سئما من الحبال على جانب اليخت، وسوف أثب إلى الماء قبلك.

وأمسك بيدها وقادها إلى حيث ثبت السلم عند حافة اليخت. وعندما ترك يدها، شدت على راحتها تستعذب دفء راحته أطول فترة ممكنة. كان غباء منها أن تفعل ذلك. لم تكن رحلة عاطفية، وإنما رحلة صداقة. ولكن لا تعلم لماذا تثير هذه المشاعر الاضطراب في نفسها؟

اهتز سطح اليخت اهتزازة خفيفة، أعقبه صوت شيء ما ينزل إلى الماء، وعرفت سابريتا أن باي قفز إلى البحر بعدها سمعته وهو يسبح في الماء، فالتجته برأسها في اتجاه الصوت، وبعد عدة ضربات من ذراعيه اقترب من نهاية السلم ونادى عليها:

اهبطي. الماء جميل.

وأمسك باي بالسلم، بينما راحت سابريتا تهبط درجاته، وتعلقت أصابعها بالحبال، وهي تتحسس حرارة الماء. فوجدتها فاترة، واصطكت أسنانها لعصبيتها، وسألها باي وهو يسبح بجوار السلم:

هل أنت مستعدة؟

فأجابت سابريتا وهي تكز فكها حتى لا يسمع صوت أسنانها وهي تصطك:

أعتقد ذلك.

ودفعت سابريتا يدها لتطلق قبضتها من فوق السلم، والتقطت نفسها عجيقا قبل أن تهبط إليه، وفي باديء الأمر انتابها التوتر وعدم الاستقرار ولكنها سرعان ما زالا عندما اعتادت حرارة الماء، واستطاعت أن تسمع ضربات ذراعي باي وهو يسبح قريبا منها، فأخذت تستمد الثقة والقوة من وجوده إلى جوارها.

ولاح لها أنها سيحت فترة طويلة، إذ بدأت تشعر بالاعياء وأحسست بثقل في ذراعيها، فتوقفت عن مواصلة

السباحة لتلتقط أنفاسها، وسألته:

كم بقي أمامنا؟

فأجاب بانفاس قوية لا يبدو عليها الإعياء:

حوالي خمسة عشر قدما قبل أن نلمس القاع.

ولم تعقب سابريتا. وإنما واصلت السباحة مرة أخرى، بهدوء حتى لا تشعر بالاعياء، ولدهشتها اكتشفت أنها لم تقطع مسافة تذكر عندما لمست قدمها أرضا رملية، وسرعان ما انتصبت بقامتها، ومسحت الماء المملح الذي كسا وجهها، وثبتت شعرها الطويل وراء أذنيها، وتكلم باي من مكان يقع إلى يسارها. قال:

لقد نجحت في محاولتك. كيف تشعرين الآن؟

فابتسمت ابتسامة شاحبة وقالت:

مجهدة، ولكنني بخير.

دعينا نتوجه إلى الشاطئ، ونستمتع باستراحة.

واستراحت بدها على الماء، وتركزت الأمواج تتدحرج فوقها وتستدل بها إلى الشاطئ. ومع هذا أمسك باي بيدها، وقادها إلى الساحل.

وعندما وطأت قدمها الأرض الرملية المتماسكة، قال لها:

هذا الساحل يمتاز بصخور تتيح للمرء الاستمتاع بحمام الشمس فوقها، بدلا من الاستلقاء على الرمال.

وبعد أن قطعا عدة ياردات ضغط على يدها لتقف. وقال لها:

هنا، مكان مناسب.

وقبل أن تبدي سابريتا أية معارضة أمسكها من وسطها، ورفعها إلى سطح صخرة صلبة ودافئة، وتعلقت تلقائيا بذراعيه المبلتين لتحتفظ بتوازنها. وبدأت تتسارع ضربات قلبها واحتاجت لعدة ثوان حتى يستعيد قلبها هدوءه، وتستقر نبضاته، وبعد لحظات اعتلى باي الصخرة ليجلس إلى جوارها، وبعد أن اتخذ وضعا مريحا سألها:

هل استمتعت بوقت طيب ليلة أمس؟

ليلة أمس؟

وتجهمت سابريتا، وأشاحت بوجهها عنه، وعندئذ تذكرت فقالت:

أجل. أمسية طيبة.

وحقا كانت أمسية هادئة أمضيتها مع صديقتها سالي، تبادلنا فيها الحديث أحيانا، واستمتعا إلى

بعض الاسطوانات الغنائية أحيانا أخرى .

سألها :

"أين ذهبت ؟"

أدارت سابريتا وجهها للشخص لتجفف بشرتها المبللة ثم قالت له :

"مكثت أنا وسالي في البيت ."

فقال بصوت ساخر :

"أهضيتما الليلة في ثرثرة نسائية . أليس كذلك ؟"

كانت سابريتا حائرة بين أمرين : هل كان باي يسخر من أمسية السبت التي أمضتها هادئة بلا أحداث ، أم أن سخريته كانت موجهة لها لأنها اختارت أمسية تختلف عن تلك الليلة المثيرة التي قضتها معه . ولما كانت تعرف باي حق المعرفة ، فإن التعليل الأول كان أقرب إلى الحقيقة . وأخيرا قالت :

"إن ثرثرة الرجال تعادل ، إن لم تزيد عن ثرثرة النساء ."

ولم يدخل باي في جدال معها وإنما قال :

"أعتقد أن رأيك يعتبر صحيحا إذا تساوى العدد في كل من الجنسين ."

وأعقب حديثهما صمت غريب . على الأقل كان غريبا بالنسبة لسابريتا . وقالت يحدعها إلى الوراء لتستند على راحتها وقالت له :

"الشخص تبعث الذفء ."

قال باي :

"أعتقد أنه من الأفضل أن أستلقي وأستمع بها ."

وأستلقى بجسمه وهو يردد كلماته ، وخيم سكون لم يكن يقطعه إلا اندفاع الأمواج إلى الشاطئ ، ولم يكن أمام سابريتا سوى متابعة اندفاعها .

وتحركات يداها حتى عثرت على نتوء مرتفع في الصخرة التي تقع وراءها وكأنها وسادة طبيعية ، فاستلقت برأسها عليها ، وظلت فترة طويلة تستمع إلى صوت أنفاس باي ، أما أنفاسها هي فكانت ضحلة لأن عضلات صدرها كانت جتوترة . وأخيرا داعبتها حرارة الشمس فبعثت الاسترخاء في أوصالها . ولم تخلد سابريتا إلى النوم وإنما داعبت جفونها إغفاءة ، وفجأة انتفضت كل حواسها ، وطرقت جفونها عندما حاولت أن تحدد سبب اضطرابها ، وأدارت وجهها بخفة في اتجاه باي ، ولمس خدها يده بطريق الصدفة قبيل أن تدرك أن باي

كان يحسك خصلة شعرها الحريري . فقال لها بصوت مرخ :

"هل تعرفين أن هذه أول مرة أرى فيها شعرك مرسلا ."

فقالت متلعثمة :

"أنا . . . أنا لا أحبه مرسلا ، حتى لا يضايقني أثناء سيرتي ."

وشاع الاضطراب في صوتها ، عندما أدركت أنه دنا منها كثيرا ، حيث كان باي مستلقيا على جبينه ، ومرتكزا على أحد مرفقيه ، ويبدو أنه لم يكثر كثيرا لتفسيرها ، فاستنرد يقول :

"عندما تعقصين شعرك في شكل عقدة فوق رأسك ، فإن مظهرك يبدو أكثر توازنا ، وخداعا للنظر . . . تكونين أشبه بملكة مهذبة . بينما يختلف شكلك عندما ترسلين شعرك ، فإن منظره يبدو أكثر أنوثة ."

وراح النبض يضرب بشدة في صدعها ، وكان من الصعب عليها التدرج بعيدا عنه ، لأن حافة الصخرة كانت قريبة منها .

كان حلقها متوترا مشدودا ، وبدأ صوتها مضطربا وهي تقول :

"ألا تظن أن الوقت قد حان للعودة ؟"

سألها ساخرا :

"ما الأمر ؟ ألا تحبين تعليقاتي على تسريحة شعرك ؟"

ألقت سابريتا خصلة شعرها على كتفها العاري ، وهزت رأسها وهي تقول بإصرار :

"لا يهم . سوف أعقسه عاليا حيث يسهل علي العناية به ، بغض النظر عن أي تسريحة تفضلها ."

وكانت عبارتها يشوبها التحدي السافر ، ولكنها لم تعد تكثر . واقترب باي من ظهرها ، وجذب شعرها بشدة ، وقال :

"إذن من المحتمل أن تشعرني بالأسف عندما تسمعين بأنني أفضل تلك العقدة الحربية ، أما شعرك المرسل فمكانه المناسب هو غرفة النوم ."

وأطلقت سابريتا زفرة حارة ، فلم تعد تختل هذا الغزل المفضوح ولذا شرعت تدفع نفسها إلى الوراء لتتخذ وضعا لجلوسها يمكنها به التهرب من اقتراب جسمه منها ، ولكن باي كان أسبق منها إلى الوقوف على قدميه ، وقال لها :

"سنعود سريعا ."

وحاولت سابريتا الوقوف ، ولكن باي كان أسرع منها

الى الوقوف على الرمل، ومد ذراعيه ليمسكا بخصرها ويهبط بها الى أسفل قبل أن تقطع بقدميها المسافة القصيرة بين الصخرة والشاطئ، وتملكها التوتر لعزوفها عن مساعدته، وعندما بذلت جهدها لكي لا تقترب بجسمها منه، تعثرت قدمها في حفرة كانت غائرة في الصخر، وكان ألم العثرة مبرحا دفعها الى أن تلقي بنفسها على صدره، وساعدها بقبضته الحازمة على أن تحفظ توازنها، وسألها:

"هل أنت بخير؟"

وقالت له بتأكيد حازم ولكن بصوت مضطرب بينما كانت ضربات قلبها متسارعة:

"أجل أنا بخير. لقد تعثرت بالصخرة."

ودفعت هبة مفاجئة من الريح خصلة رفيعة من شعرها لتستقر على وجهها وتعلقت على شفتيها المبللتين، وشرعت سابرينا في إبعادها، ولكن يدها كانت بعيدة عنها، فسحبها أصابع باي برفق، ودفعتها الى ظهرها مع بقية خصلات شعرها الطويل. وظلت يده الى جوار وجهها، وراح أصبعه يدغدغ عظمة وجنتيها فتوقفت أنفاسها، واستكانت حركتها تحت سحر لمسته.

وفجأة جذبت جسمها من بين ذراعيه عندما حاول تقبيلها وسارت عدة خطوات سريعة بعيدا عنه ثم أدركت بأنها لا تعرف وجهتها، فعمدت ذراعيها بشدة حول نفسها، لتقاوم القشعريرة التي سرت في جسدها.

وسار باي الى جوارها، واستطاعت أن تشعر بعينيها تتركزان عليها فأرخت أهدابها حتى لا تعكس نظراتها مشاعرها الدفينة التي تجوب خيالها وفي لحظة خاطفة أحست أنها تجرؤ على التنفس.

"قال لها:

"خير لنا أن نعود الى اليخت."

كانت لهجته تنم عن غضب مكبوت. ولم تستطع سابرينا أن تدرك هل كان الغضب موجها لنفسه أم لها؟

وكانت يده باردة عندما أمسكت بيدها وهو يقودها الى البحر، وشعرت سابرينا بالسعادة عندما غاصت في الماء، وأطلق سراح يدها لتبدأ السباحة، ولم تكن تتصور أنه من الممكن أن تكون لمسة اليد التي اعتادت على أن تشيع اللهب في أوصالها، هي نفس اللمسة التي تثير القشعريرة

في عظامها.

كانت تؤنب نفسها أثناء السباحة في مراجعة العودة لحماقتها التي سمحت لباي بأن يحملها الى هذه الرحلة بينما كانت الحكمة تدعوها الى أن تكف عن رؤيته.

وكانت سابرينا منهكة عندما لحق بها باي، وجذبها الى السلم فارتقت درجاته دون معونته، وتمهلت على سطح اليخت قليلا حتى تلتقط أنفاسها.

ثم اتجهت الى قاع اليخت فقال لها بلهجة أمرية:

"عندما تفرغين من ارتداء ثيابك، سيكون طعام الغداء معك. أظن أنك ستعثرين على طلبك، وفي نفس الوقت سيكون اليخت على أهبة الاستعداد للرحيل."

وتلعثمت وهي تقول:

"لا أظن... لا أظن أنك ستتناول طعامك قبلي؟"

"أعتقد أننا في عجلة الى العودة... أليس كذلك؟"

وكانت تشوب صوته نبرة التحدي... التي حاولت أن تستنكرها ولما لم تسرع في الجواب على سؤاله، أضاف قائلاً بنجهم:

"سوف أستمع في الطعام... كما استمتعت به ذات مرة ونحن نتناوله في رحلتنا البحرية."

وفي الحقيقة، أحست سابرينا أن الطعام لا مذاق له، وكان معظمه يتوقف ليلتصق في حلقها، وكانت تبتلع بصعوبة بالغة. ولم تشعر بأي جو للصدقة يحيط برحلة العودة، وإنما كان التوتر يخيم على الضمت الذي ران عليهما.

وفي خاتمة اليوم شعرت سابرينا بالبرود يشوب قبول باي لكلمات الشكر المهدبة التي قدمتها له، وعندما أوصدت الباب الحديدي وراءها أدركت تماما سبب تعاستها وكان لديها وقت كاف في طريق العودة لكي تمنع النظر في السبب، وعرفت أنها أحبت باي كامبيرون... وأدركت أنها كانت حمقاء... لا تبصرا.

من الوقت لتنظيف نفسك، وتغيير ملابسك.*
تمتت سابرينا، وهي تركز اهتمامها على التمثال النصفي
الذي لم يكتمل بعد:
"لا أظن أنني سأذهب معكم."
ولكن ديبورا ذكرتها قائلة:
"غرانت يترقب بخبرة أن لتناول نحن الثلاثة طعام العشاء
خارج المنزل اليوم."
قالت كاذبة:
"أنا أعلم ذلك ولكنني أفضل أن أواصل العمل فترة أخرى،
لأنني قطعت نصف الشوط في هذه القطعة الفنية، وأرغب في
أن أستمّر في عملي والفكرة مازالت حية في عقلي.*"
ألقت ديبورا عليها سؤالا يشوبه الاضطراب:
"هل أنت متأكدة؟"

فقالت سابرينا مؤكدة:
"لقد أمسكت بالشكل، ولا أود أن أفقد معاليه.*"
قالت ديبورا بتردد:
"لا أعني العمل.*"

سألت سابرينا:
"[ذن ماذا تعنين؟]"

وتوقفت يد سابرينا عند أذن التمثال الذي كان في منتصف
مرحلة التشكيل وتساءلت: هل مازالت ديبورا تمتلك نفاذ
البصيرة!

قالت ذات الشعر الأحمر بوعي:
"أنا... أنا أردت التأكد من أنني لست السبب في رفضك
للخروج معنا. لا أريد أن تظني بأنك سوف تصبحين الطرف
الزائد في رفقتنا هذه الليلة.*"

وأطلقت سابرينا زفرة ارتياح خفيفة، وقالت:
"كلا... يا ديبورا إن رفضي الخروج ليس بسببك. سنذهب
سويا في يوم آخر. كان من الأفضل لي ألا أبدأ عملي هكذا
متأخرة، ولكن ما دمت بدأت فيه، فلا بد أن أواصل العمل فترة
أطول حتى أنجز جانبها كبيرا منه.*"

"أدرك قصدك. أنا أعرف كم هو مهم هذا العمل بالنسبة
إليك. فلا تقلقي يا سابرينا. سأشرح الأمر لغرانت:"
"ما الذي تودين شرحه؟"

وفجأة صاحت ديبورا بصوت مضطرب وقالت:

٩ - تمثال نصفي

كانت كتفة الوداع التي ألقاها باي هي: سأتصل بك هاتفيا
ومن واقع تجربة سابرينا كانت هذه الكلمات تعني نهاية
علاقة. وها قد حل يوم الجمعة ولم يتصل بها.

وانحدرت دمية فوق خدنها، ومسحتها بأطراف أناملها التي
تركت وراءها خطا من الاتصال الأسود على وجهها. لماذا لا
تنصب مآقيها من الأسفل كما فعلت بصرها؟ وعجبت في
يأس. ثم تنهدت. ربما توجد هناك طريقة أخرى للتخلص من
هذا الألم.

وتناهى إلى سمعها صوت طرقة على باب الاستوديو،
وكانت قد احتفظت به موصدا خلال هذا الأسبوع، لأنها لا تريد
أن يتلصص عليها أحد دون إذن منها، أو حتى يدير
مقبض الباب. واعتذرت لأبيها بأنها تريد أن تحول دون أية
منغصات تلهيها عن عملها. وكانت تجد نفسها تقف في وسط
الغرفة وتتخبط في الجلاء وكانت لا ترغب في رؤية أبيها ولا
أي شخص آخر.

وتناولت سابرينا طرف قميصها لتجفف وجهها بعناية من
الدموع خشية أن تكون تركت وراءها دمية على خدنها لم
تمسحها، وأخيرا نادى على الطارق قائلة: ادخل.
وعبقت الغرفة برائحة نفاذة من العطر، الذي اعتادت
ديبورا أن تستخدمه وأكدت الخطوات الرقيقة وجودها. قالت
لها خطيبة أبيها:

"جئت لأذكرك بأننا سنرحل خلال ساعة. أمامك فسحة

"غرانت؟ ما كان يجدر بك أن تتسلل الى هنا بهذه الصورة!"
قال:

"لم أتسلل، ولكنك ببساطة لم تسمعي."*

ثم استطرد يقول:

"والآن... أسأل ماذا كنت تودين شرحه لي؟"

وأخذت سابرينا تجيب نيابة عن ديبورا:

"قررت أن أمكث هنا لأواصل العمل الليلة، ولا أستطيع الخروج معكما لتناول طعام العشاء..."*

قال أبوها متجهما:

"نحن الاثنان سوف نخرج لتناول العشاء معك، وليس العكس..."*

فهزت كتفها باستخفاف، وضمنت على ألا تدعه يغير من رأيها، فقالت:

"إذن سوف نخرج في ليلة أخرى..."*

"كلا... سوف نخرج هذه الليلة..."*

وتدخلت ديبورا في الحديث تسأله أن يكف عن الإصرار:
"غرانت!"*

قال بحزم:

"لقد عملت سابرينا كثيرا يا ديبورا. انطري الى الحالات السوداء التي تحيط بمينيها والتجارب في وجنتيها، أنها لم تخلد الى النوم، ولم تأكل وكل ما تفعله هو العمل من الصباح حتى غروب الشمس. وبلاخرى حتى منتصف الليل..."*

وتنهدت سابرينا وقالت:

"إنك تبالغ يا أبي، زد على ذلك أن العمل أصبح شيئا هاما بالنسبة الي..."*

وكانت سابرينا صادقة، فإن العمل كان الشيء الوحيد الذي يحميها من الجنون، وبدونه تكون الحياة فراغا مميتا، وبدون باي تكون الحياة قاتلة.

واستطردت تقول:

"أعدك بأنني حالما أفرغ من هذه القطعة الفنية سأعد لنفسني شيئا ألذ ثم أوى الى فراشي ما رأيك؟"

فتمتمت ديبورا قائلة:

"أظن أن المساومة عادلة، أليس كذلك يا غرانت؟"
"أنا..."*

ولم يتم عبارته وأخذ نفسا عميقا، غاضبا، لأن المناقشة

مع سيدتين يحبهما أجمل حب، أصبحت لا تجدي. وتنهذ مرة أخرى بشدة، وأردف يقول في استسلام:

"حسنا. يمكنك المكوث في البيت هذه المرة. ولكن سوف نخرج سويا في الأسبوع القادم ولن يكون هناك سبب للاعتذار. والآن لماذا لا تدعيني ألق نظرة على عملك الفني الهام الذي يمنعك من الخروج؟"

وخطت سابرينا جانبا عندما دنا غرانت منها، وقالت:
"لقد شكلته الآن فقط. إنني أشكل تمثالا نصفيا لجينو مارشيني في شبابه فقد أراني منذ عام صورة التقطت له في يوم زفافه. وكنت أنوي أن أرسمه على لوحة... ولكنني..."*
وصمتت، وكان صمتها يقول أنها تركت اللوحة لأسباب واضحة واستطردت تقول:

"إن شكله روماني، فيه كبرياء وقوة..."*

قال غرانت لبن غير مصدق:

"جينو... صاحب الصيدلية؟"

قالت سابرينا مدافعة:

"التمثال في مرحلة الأولية..."*

وخيمت لحظة صمت بينما راح غرانت يدرس رأس التمثال النصفى، ثم التفت حياة وقال:

"ديبورا... هذا التمثال يشبه من... في رأيك؟"

قالت في تردد:

"حسنا... إنني لا أعرف جينو جيدا..."*

قال غرانت بإصرار:

"أما أنا فأعرفه منذ سنوات عديدة. إنني آسف أن أقول لك يا سابرينا إن هذا التمثال لا يشبه جينو البتة، ولا حتى في شبابه..."*

وعندما بدأت سابرينا تقول:

"عندما أفرغ منه..."*

التقطت غرانت عبارتها ليكملها قائلا:

"سيشبه باي كاميزون تماما..."*

"أنت وخطيء يا أبي..."*

قالتها برصانة، وهي تطبق قبضة يديها بشدة حتى شعرت بالألم حاد فيها، وكأنها تنزل العقاب بهما، لأنها لم تتوقع الخيانة منهما. ثم أردفت تقول:

* أنه لا يشبه باي كامبيرون البتة . أليس كذلك يا ديبورا ؟
قالت المرأة الأخرى :

* أنه يحمل أدنى شبهة به ، إن التمثال لم ينته كما نقولين .
وضع غرائث ذراعه حول كتفي سابرينا ، واحتضنها ليبعث
الطمأنينة في نفسها .
ثم قال :

* إن الرجل له وجه مثير . إذا استطعت رؤيته يا سابرينا ، فإنك
سوف تجددين دافعا إلى رسمه على لوحة من القماش . ومع ذلك
فإنني لن أوصل الجدل معك ، فأنت الفنانة ولست أنا . إذا
قلت إنه جينو . . . فهو جينو اعتقد أنه توجد ملامح رومانية
عند كل منهما . هل تسمح لي السيدتان بالانصراف لأغتسل
وأبدل ثيابي .

وطبع غرائث قبلة على وجنة سابرينا ، ثم غادر الغرفة ،
وبعد رحيله راحت سابرينا تتأمل بلا إبطار قطعة الصلصال
المشكلة فوق المنضدة ، وبينما راح قلبها يصرخ بالألم ، وفي
غمرة تألمها نسيت وجود ديبورا معها حتى أيقظتها من تأملها
بقرفة من كعبي حذائها .

قالت ديبورا بصوت رقيق :

* سابرينا . . . فيما يتعلق بباي . . .

ثم توقفت عن مواصلة الحديث ، فقالت سابرينا بتحدد ، وفي
نبرة باردة آتية من بعيد :

* ماذا عن باي ؟

* لا أظنك قد تعلقت به تعلقا كبيرا ، هل حدث ذلك ؟

تلعثمت ديبورا وكأنها تظا بأقدامها أرضا محرقة ، ثم
واصلت الحديث :

* أعني . . . أنك معجبة به كثيرا ، ولكنني لا أظن أنه سوف . . .
فاتمت سابرينا العبارة لها :

* تجذبين أنظاره اليك بحرارة . أنا أدرك تماما أنه يشعر
بالحنان نحو . . .

ولم تستطع سابرينا أن تحمل نفسها على أن تتفوه بكلمة
الشفقة بدلا من الحنان .

تنهدت ديبورا في ارتياح وقالت :

* أنا سعيدة أنا متأكدة أنه يميل اليك يا سابرينا . ولكن لا
أظن أنه من الحكمة أن تكوني مولعة به ولعا شديدا . . . وفي
نفس الوقت ليس من العدل أن تكوني نفقت يدك منه .

* أنا مولعة به . لقد ساعدني كثيرا . باي هو الشخص الذي
اقترح علي أن أشغل نفسي بالنحت .

وصرخت سابرينا لنفسها في صمت بأنه ليس من العدل أن
تحطم قلبها من أجل مستقبلها ، ولكن متى تحتكم الأمور إلى
العقل إذا ارتبطت بالحب ؟
واستطردت تقول :

* لا تقلقي يا ديبورا . لم أسىء تفسير دوافعه .
فقالت ديبورا :

* أنت تعرفين جيدا موطيء قدميك على الأرض .

وفكرت سابرينا وقالت لنفسها : الآن فقط أعرف أن رأسي
يسبح في الفضاء . وعندما قالت ديبورا بأنها سوف تدعها
لعملها تمنمت بلجاجة شاردة . وعندما أغلقت خطيبة غرائث
باب الاستوديو وراءها راحت سابرينا تبحث بعينيها عن
موضع التمثال النصفي ، وأخذت تستكشف بخفة الملامح غير
المصقولة للوجه ، الذي أكد لها أنها ملامح وجه باي ، وأثابها
غضب بارد سري في أطراف جسمها . وسمعت عقلها يصدر لها
أمره قائلا :

* حطيمه . . . دمره . . . حوله إلى كومة من الصلصال .

واستراحت يداها على جانبي الوجه ، ولكنها لم تستطع
تنفيذ الأمر وسقطت دموعه . . . ثم دموع أخرى ، وأخيرا أجهشت
بالبكاء ، فاهتز قوامها النحيل ، وتحذب كتفائها ، وتقوس
ظهرها من شدة الألم في صدرها .

ومع هذا لم تمكث يداها طويلا بلا حراك ، وإنما شرعنا في
العمل وبدافع من الألم راحت تحدد على الصلصال كل لحظة من
ملامح وجهه وكل قطعة من قلبها لم تهبط لباي . . . ذهبت
خالصة إلى الصلصال الناعم .

ولم تشعر سابرينا كم من الوقت مضى عليها ، عندما سمعت
أبائها يطرق الباب ، ثم يفتحه ، ولم يكن لديها فسحة من
الوقت لكي تمسح نهر الدموع الذي غطى وجهها ، لذا أدارت
ظهرها للباب عندما قال لها أبوها :

* سنرجل الآن يا سابرينا ، ولا تنسي وعدك . تناول طعامك
ثم توجهي إلى فراشك بعد ذلك .
قالت بحزم :

* أجل يا أبي . استمتع بوقتك .

وكان دخول أبيها سببا في كبح جماح دموعها

المنهمرة، وعرفت مقدار ما حرمته... عاطفيا، وجسديا.
وعندما أغلق الباب الأمامي أدركت أن أباهما وديبورا قد رحلا
عن المنزل وسارعت الى القاء جسدها على المقعد، ودقنت
وجهها في راحتها، دون حراك، لا تبقي حتى استهلاك
طاقتها في التنفس.

وسمعت دقات تدوي... وخيل لها لأول وهلة أنها تخيلات
ولكنها أدركت أنها آتية من الباب، فكست وجهها تقطبية
وهي تجفف وجنتيها من الدموع، وانزلقت من فوق المقعد
وهي تدمدم قائلة:

"لا بد أن أبي قد نسي مفتاحه."

ولم تطاوعها ساقاها على حملها بسرعة عبر الاستوديو، أو
تهبط بها درجات السلم الموءدي الى الطابق الأرضي،
واستمر الطرق على الباب بصورة ملحّة أكثر من الأول. قالت
سابرينا بصوت يشبه الانفعال:

"أنا قادمة..."

توقف الطرق، ولكن عضلات ظهرها كانت قد تغلصت من
شدة التوتر، فراحت تدعكها بضجر، وهي تدير القفل
الأوتوماتيكي وتفتح الباب.

ثم قالت بصوت يبدو فيه الخفة والمداينة:

"ما الأمر؟ هل نسيت مفتاحك؟"

ولكن سوءالها قوليل بالصمت، فعالت سابرينا برأسها جانبا
تصيح السمع وقالت:

"أبي؟"

"هل تعرفين أنه يوجد آثار من الصلصال على خذك؟"

تراجعت سابرينا مأخوذة عند سماع صوت باي، وتحركت
يدها لتفلق الباب، ولكنه اعترضه بقدمه، وخطا الى داخل
الغرفة. وسألته بغضب:

"كيف أتيت الى هنا ماذا تريد؟"

قال موضعا بهدوء:

"قابلت والدك وديبورا في طريقهما خارجا، وسجحا لي
بالدخول."

أشاحت بوجهها عنه وهي تمسح الضلزال عن وجنتيها ثم
سألته:

"لماذا؟"

قال باي:

"تسألين لماذا دعاني أبوك الى الدخول؟ ذكر عن إقبالك على
العمل بجد واهتمام."

قالت بأصرار:

"حسنا. أنا لا أعمل بجد واهتمام. وكل ما أعنيه لماذا أتيت
الى هنا؟"

"لأسألك أن تتناولني طعام العشاء معي."

دفعت سابرينا رأسها الى الوراء، وأرخت أهدابها في صلاة
صامتة لعله يدعها لشأنها، وقالت له:

"أرفض قبول دعواتك."

قال:

"لن أقبل رفض دعوتي. يجب أن تأكلي. هل يستوي الأمر
عندك إذا أكلت معي أو أكلت وحدك؟"

"بل يجب أن تقبله، لأنني مشغولة. ولن يضير بي كثيرا أن
تناولت الطعام وحدي."

وكانت سابرينا تعرف أنها اعتادت أن تتناول الطعام
وحدها. وقال باي بهدوء:

"سابرينا... كفاك عنادا. لا حاجة بك الى تغيير ملابسك.
اغطي قصبي العمل واخرجي كما أنت. سأكُل، ثم تعود
مباشرة للانتهاء من عملك إذا كان ضروريا الانتهاء منه
الثلة."

أذرتة قائلة:

"لست أنوي الاستماع الى موضوع الخروج."

وبخطوة سريعة، اقترب باي منها، وحل حزام القميص
الخارجي، وأسرعت هي بدورها الى ربطه ثانية، ولكن أصابعه
أطبقت على رسفها، ليمنعها من ذلك وحاولت سابرينا أن
تطلق رسفها من قبضته وهي تدمدم:

"لن تستبد بي هذه المرة يا باي كامبيرون."

أمسك رسفها برفق وهو يقول:

"ستمضي الليلة بطولها في الجدل، لأنني لن أرحل من هنا
قبل الحصول على موافقتك."

لم يكن تهديده هزيلا، كانت كبرياؤه هي السلاح الأول الذي
يدفعه الى تنفيذ تهديده وتمثل السلاح الثاني في النار التي
سرت في ذراعها. وهو ما لا تستطيع أن تخفي إزاءه
مشاعرها، أو تمسك لسانها، إذا هي حاولت أن تستمر في
العناد طويلا.

وأطبقت سابرينا فمها بشدة لبرهة ثم قالت:
"إذا وافقت على تهديدي هذه المرة، هل تقسم بشرفك أنك
من الآن فصاعدا سوف ترضخ للقرارات التي أتخذها بشأن
الخروج معك؟"

وقوبل رجاؤها بصمت يشوبه التحفظ، ثم قال:
"سأقسم بشرفي... فقط إذا... إذا... وافقت على أن
نناقش سبب عدائك المفاجيء؟"

قالت ببرود:
"لا أعرف ما الأمر الذي تتحدث عنه...
وأخذ قلبها يدق بجنون. وتجاهل باي إنكارها وقال:
"أقسمي بشرفك يا سابرينا...
وأطلقت تنهيدة، كانت تخفي شيئا مغلولا وخفيا، ثم
قالت:

"حسن. أقسم بشرفي. والآن اترك رسغي...
وأطلق سراح رسغي، ودعكت المنطقة الرقيقة بلا وعي
منها، ثم قالت كاذبة:

"ولكنني مازلت لا أعرف ما الأمر الذي تتحدث عنه...
وتغيرت نظرتها إليه، ولكنها حرصت على ألا يكتشف
السبب، لأنه إذا كانت الشفقة من أجل فقد بصرها أمرا يمكن
احتماله، أما الشفقة لأنها أحبته فهذا أمر آخر ترفض
السكوت عليه.
تمتم باي بهدوء:

"سوف ترى...
كم كرهت ثقته المفرطة بنفسه، وقذفت سابرينا قميصها
ليستقر فوق المقعد وتوجهت إلى حامل المظلات لتتناول
عصاها... العصا العاجية التي قدمها لها باي. وأعلنت قائلة:
"دعنا نذهب..."

سألها ساخرا:
"ألم تنسي حقيقة يدك؟ ربما تحتاجين إلى مفتاحك... للعودة
ما لم تخططي لقضاء الليلة معي...
بصقت سابرنا وقالت:
"تبا لتفكيرك..."

ولكن الفكرة كانت تعذيبا أليما نفذ إلى قلبها وهي تهرع
لترتقي الدرجات إلى غرفتها، وقد ألمها أن باي استطاع أن
يتفكه من حبه لها، وخاصة عندما أصبح شيئا ترغب

فيه بشدة.

وهبطت درجات السلم وهي تحمل حقيبة يدها، واحتكت به
وهي تعبر الباب، متجاهلة سخريته، وهو يقول لها:
"هل أنت مستعدة الآن؟"

والتزمت الصمت طوال ركوبها معه السيارة من أجل
سلامتها، وليس رغبة منها في أن تكون وقحة معه. ولم
تستطع أن تتكهن أسباب صمته. كانت تراه لفرا فهي لا تفهم
لماذا يبقي صميتها عندما تظهر له بوضوح أنها لا ترغب في
رفقته.

أدركت سابرينا أنه من المحتمل أن تكون هذه المرة هي
الآخيرة التي تصحبه فيها، إذا حافظ على وعده. وكان من
المستحيل أن تخرج معه بعد أن عرفت حقيقة مشاعره، لأن
ذلك سيفجر مزيدا من الألم.

كانت تعرف أنه يأمل في تغيير عقلها، وإقناعها
بالاستمرار في علاقتها ونجح في المرة الأخيرة عندما كانت لا
تدرك مقدار حبها. ومن الطبيعي أن يكون واثقا أنه يستطيع
أن يكرر المحاولة... لماذا؟ إنها لا تعرف يجب أن تدافع عن
نفسها ضد سحره وجاذبيته، بالأنا تظيل المكوث معه بعد أن
افترقا.

وتركزت أفكارها على الرجل الذي يجلس وراء عجلة القيادة
وخجبت أي شيء آخر، ولم تسمع صوت حركة المرور في
غذوها أو رواحها عبر شارع سان فرانسيسكو كأن هذا لا
يعنيها. ولم تكثر كثيرا بالتفكير في المكان الذي يصحبها
إليه ولو أنها بعد لحظات سوف تعرف المطعم حين تدخل إليه،
والألم يعتصر قلبها.
"سابرينا..."

ناداها باي في لهجة أمرة جذبت انتابها من فوقعة التماسه
التي تكمن فيها فانتصبت بقاومتها، وأدركت أن السيارة قد
توقفت وكست وجنتيها حمرة وردية ولكنها كانت تعلم أن
الظلام الذي يسود السيارة كفيل بإخفاء احمرار خديها.
ورفعت رأسها في استعلاء وسالت:

"هل وصلنا...
فأجاب باي:
"أجل..."

وأطبقت أصابعها بشدة حول مقبض عصاها، وانتظرت

حتى يدور باي حول السيارة ليفتح الباب المجاور لها ، وتركت رؤوس الثعالب المنقوشة على المقبض العاجي آثارها على أصابعها ولأنها كانت تجهل وجهتها ، فإنها قبلت أن تترك يده ترتاح على مرفقها ليقودها . وبعد أن خطت عدة خطوات ففتح باي بابا ودفع بها الى داخل مبنى . ثم سارا قليلا حتى اقتربا من سيدة حيثهما في دهشة مرحة وقالت :

"لقد أتيتما مبكرين . دعني أتناول معطفك ."

وناولها باي معطفه الخفيف ثم قال :

"أجل لم تأخذ مني وقتا طويلا كما ظننت يا سيدة غينز . أقدم لك سابرينا يا سيدة غينز . وأنت يا سابرينا أقدم لك سيدة غينز ."

وحيت سابرينا المرأة قائلة :

"كيف حالك يا سيدة غينز ؟"

ثم راحت تصفي عليها تلتقط الأصوات الجالوف سماعها في أي مطعم عام ، ولكن صوت السيدة غينز جاءها يقول :

"أنا سعيدة بلقائك يا آنسة لين ."

وعندما تراجعت السيدة غينز بضع خطوات ، التفتت سابرينا الى باي لتسأله :

"أي نوع من المطاعم نحن فيه ؟"

ووضع يده مرة ثانية على مرفقها ليدفعها الى الامام وهو يقول :

"إنه ليس بمطعم ."

وتجهت سابرينا وقالت :

"ولكن . . ."

وقاطعها باي قائلا :

"هذا منزلي يا سابرينا ."

وتوقفت فجأة وقالت متهمة إياه :

"قلت لي أنك ستصحبني خارجا لتتناول الطعام ."

"ولكنني لم أقل لك إنني سوف أصحبك الى المطعم ."

وترك مرفقها ، وأخاط بذراعه خصرها من الخلف ، وهو يدفعها الى الامام .

واستطرد يقول :

"وأنت لم تسأليني البتة ."

وخلعت سابرينا خصرها من ذراعه وقالت بصوت يضرب بالعاطفة :

"خدعتني هذه المرة أيضا يا باي كامبيرون . عد بي الى البيت حالا ."

قال :

"أعطيت السيدة غينز لائحة بالاطعمة المفضلة لديك ، وبذلك مجهودا كبيرا ، لإعداد وجبة تحبينها ، وسوف تصاب بخيبة أمل إذا رحلت ولم تتناولي شيئا من صنع يديها ."

وذكرته بحدة قائلة :

"أنت لا تهتم كثيرا بمشاعري ، فلماذا أشعر بقلق لا يذائها ؟"

فقال بصوت منخفض ناعم :

"لأنك أساسا امرأة رقيقة وحساسة ، ولأنك أعطيتني كلمتك ."

وابتلعت سابرينا حشرة يائسة من الإحباط وهي تقول :

"من واجبي أن أحترم كلمتي ، في الوقت الذي لا تحافظ فيه على كلمتك ؟"

"أنا لم أكذب عليك ."

قالت بشهكم :

"لم تكذب ، ولكنك خدعتني فقط . قدتني بسيطرتك حتى أفعل ما تريد وقبل هذا وبعده أنت باي كامبيرون . . . إنك تضع

دستور مبادئك وفق هواك اليس كذلك ؟"

قال بصوت يتوهج خيط رفيع من الصرامة الباردة :

"هل نتوجه الى غرفة الجلوس ؟"

وشعرت أنها تخدع نفسها بالرضا عندما تحاول إيلاها ، وهي في الحقيقة تخبه بجنون ، ولكنها في نفس الوقت

تكرهه أيضا ، لأنه ينظر اليها كفتاة غمياء سيئة الحظ ، وليس

كامرأة لها مطالبها العاطفية .

ولم تعارض سابرينا الذراع التي كانت تقودها بحزم ،

واستدار يمينا ، وعندما تباطأت قدماه سأله ببرود وفي تحد

سافر :

"لماذا أتيت بي الى هنا يا باي ؟"

فأجاب وهو يعتمد عدم فهم سؤالها :

"لأنك لا تستطيعين تمضية الامسية في البهو ."

فقالت متهمة إياه :

"أنت تعرف جيدا ، أنني أشير الى منزلك !"

"لأنه يتيح لنا الخلوة التي نتبادل فيها الحديث بحرية ."

قالت سابرينا تذكره :

"يمكن الحصول على هذه الحرية في سيارتك ، أو في منزلي ."

قال لها بأسلوب منطقي:

"لن يتاح لنا ذلك. ففي السيارة ستفقدن أعصابك، ومن المحتمل أن يراودك التفكير في الوشوب من الباب قبل أن أستطيع أن أمنعك من القفز، وقد تصرعك سيارة عابرة. أما في بيتك... فإنه لن يتيح لنا هذه الخلوة، فأنت تعرفين نفسك تمام المعرفة. أنت إنسانة عنيدة... ربما تركتني أتحدث إلى باب الغرفة التي سجنتم فيها نفسك. أما في بيتي فأنت لا تعرفين أي طريق يمكنك السير فيه دون أن تتعثر قدمك بقطعة من الأثاث أو الارتطام بجدار. فقالت سايرينا معارضة:

"بعد كل هذا تسألني لماذا بدأت أكرهك فجأة؟"

وحاولت أن تعود من حيث أتت ولكنها شعرت أنها عاجزة عن الحركة السريعة، حيث نجح باي في إقامة شرك لها، وحاولت بطرف عصاها أن تبحث عن أية عفة تعترض طريقها، وارتطمت العصا بجسم صلب. قال لها باي:

"أمامك مباشرة أريكة، وإلى يمينك مقعد، تراجعني خطوة إلى الوراء ثم دوري يميناً حتى تتجنبني وجود المقعد".

فسألتها:

"وماذا يوجد في الطريق بعد ذلك؟"

قال لها:

"لماذا لا تكتشفين الموقع بنفسك؟"

ونفذت سايرينا تعليماته ببطء، وهي تحسب المفاصل التي تقع بين قطع الأثاث حتى تخترق المساحة الخالية بمساعدة عصاها. وأخيراً لمس طرف العصا ما يبدو أن يكون ساق المنضدة، فخطت بعيداً عنها في حرص شديد لتكتشف أن المنضدة تقع بجوار الحائط، أو على الأقل بجوار جسم صلب. ربما كان أحد الأبواب، فمدت سايرينا يدها لتكتشف حقيقته، ولمست أصابعها سائر رقيقة.

جاءها صوت باي من منتصف الغرفة قائلاً:

"إن النافذة تطل على خليج سان فرانسيسكو، أمامك منظر غولدن غيت والميناء..."

ولم تعرف سايرينا ماذا كانت تأمل في اكتشافه، هل كانت تبحث عن منفذ للهروب؟ محتمل! وشعرت بالإحباط عندما تركت النافذة، وعادت تفتفي خطواتها السابقة وتوقفت عندما بلغت الموقع الذي شعرت أن باي واقف فيه. وقالت له:

١٤٠

"باي... أرجوك... عد بي إلى المنزل..."

"لم يحن الوقت بعد..."

كانت السجادة ناعمة وغزيرة تحت قدميها. كانت تحدوها الرغبة في اكتشاف المكان الذي يعيش فيه وبنام بين جدرانها.

وهزت رأسها بشدة، كان عليها ألا تفكر في ذلك. وأخيراً رفعت سايرينا ذقنها في تحد:

"إذا لم تعد بي إلى البيت، فأنتي سوف استدعي سيارة أجرة..."

سألها ساخرا:

"أين الهاتف يا سايرينا؟ هل تعرفين مكانه؟"

وأشاحت بوجهها عنه، وأطلقت تنهيدة محمومة من صدرها، فقال لها:

"ماذا يضايقك يا سايرينا؟"

صاحت بغضب:

"بعد أن وضعتني رهينة في بيتك، هل لديك الشجاعة لكي تسألني عن سبب ضيقي؟"

"هناك سبب لضيقك أكبر مما هو واضح، وأنا أريد اكتشافه... وكان صوته يقترب منها وهو يتحرك نحوها، فاستدارت سايرينا لمواجهته وهي تحاول أن تستخدم حاستها لتحديد مقابلته. وقالت له ببرود:

"ربما يكون السبب هو أنني ضقت ذرعاً من أن أعامل معاملة طفلة..."

فأجابها باي:

"إذن توقفي عن تمثيل دور الطفلة..."

واكتشفت أنه أصبح قريباً منها أكثر مما كانت تتوقع، فقد لمست يدها كتفها ولكن قبل أن تنغرس أصابعه في جسمها ابتعدت عنه بسرعة.

سألها قائلاً:

"بحق السماء، لماذا أنت خائفة مني؟ في كل مرة أقترب فيها منك ترتجفين خوفاً مثل أرنب مذعور، لقد أصبحت على هذه الحالة من الذعر منذ جعل بأصلاً..."

كانت أنفاسها ضحلة وغير مستقرة، وقالت له:

"لم يلهمني اقترابك مني... الثقة بك..."

وتراجعت سايرينا، وهي تشمر أنها عاجزة عن أن

١٤١

تقول له: .. إنها تحبه ، قال يا بي بانفعال:

"كنت غاضبا منك ولم أقصد إخافتك".

وفي هذه المرة ارتاحت يداه فوق كتفها قبل أن تحاول إبعادهما ، وكانت لمسته خازمة وليست مؤلمة .

قالت:

"ألا ترى أن الوقت قد تأخر كثيرا لا اعتذارك... الذي تقدمه الآن فقط؟"

وخففت ذقنها حتى لا يرى صورة السخريّة على وجهها ، وقالت:

"لا نستطيع أن نبقى أصدقاء بعد ذلك يا باي".

فأجاب إجابة مقتضية:

"إذن سوف أصلح ما شاب علاقتنا".

ناداها في همس ، وكان صوته تشوبه دغدغة رقيقة ، كانت أشبه بالضربة ، وقفز قلبها حتى أمسك بتلابيب حلقها ، ولكنها أجبرت الكلمات على الانطلاق من حنجرتها . سأله بصوت مشدود:

"والآن... هل تدعني أرحل؟"

سألها بحذر:

"ما الأمر يا سابرينا؟ ما هو سبب عدم رغبتك في رأيتي؟"

وقفت سابرينا صامتة زهاء دقيقة ، وهي تعرف أنه لن يطلق سراحها في الحال ، فالتقطت نفسا عميقا ودفعت برأسها الى الوراء إذ كانت على وشك أن تصنع بيديها أكبر خدعة في حياتها .

قالت له بجرأة:

"هل تريد الحقيقة يا باي؟ حسنا ، الحقيقة هي أنني كنت ضائعة ووحيدة عندما التقيت بك أول مرة ، كنت لا شيء ، إنسانة بلا هدف ودفعني أنت الى الخروج من قوقعة حياتي ، وقدمت لي صحبتك . وأهم من ذلك منحني الفرصة لأحدد مستقبلي في حقل أحبه أكثر من أي شيء في الدنيا . سأكون دائما مبتنة لك لكل ما فعلته من أجلي".

وتمهلت فترة وهي تشعر بضيقه ثم أردفت تقول:

"كم كنت أتمنى ألا تدفعني الى أن أتفوه بما قلته يا باي ، لم أقصد أن أكون قاسية معك ، ولكنني لم أعد بعد ضائعة أو وحيدة . لي مستقبلي وهدفي وهذا كل ما أبتغيه في الحياة ، استجعت بالآوقات التي أمضيها سويا ، لكن ما أريده

هو فرض سيادة عملي على حياتي . وأوجز كلامي في عبارة واحدة... هي أنني ببساطة لم أعد أحتاج اليك بعد الآن".

وسقطت يداه بعيدا عن كتفها مبتعدا عنها ، وقال:

"أدرك ذلك".

ثم أردف يقول بصوت متجهم:

"لا أظن أنه كان في وسعك أن تضعي الأمر بصورة أكثر وضوحا من ذلك".

قالت سابرينا موضحة:

"لم يكن قصدي أن أستفكك بوحي مني... أو بلا وعي ، أرجو أن تصدقني فمئذ أسبوعين أدركت أنني أريد أن أكرس كل وقتي لعملي ، ولكن لم أعرف كيف أهضي اليك بالامر حتى لا تشعر بجحودي نحوك فما فعلته لي . وكان كل ما تطلبه مني مجرد صداقة عابرة مقابل خدماتك لي ، وكنت أنا أنانية لدرجة أن ضننت عليك بهذه الصداقة ، لذلك حاولت أن أشغل الحرب معك ، على أمل أن تغضب وتكون الباديء في قصم عرى صداقتنا . أنا آسفة يا باي".

وتدخرجت دمعة من بين رموشها لكذبتهما الشنعاء ، ولكن صوته أوحى لها بتصديق كلامها . سأله بصوت يشوبه الألم:

"هل يضايقك أن تعود بي الى الميت يا باي؟"

فوافق بمزارة:

"لا أظن أن أحدا منا له أدنى رغبة في الطعام ، ليس هذا غريبا".

أخذت يد مجهولة بمرفقها ، ولم يتبادلا كلمة واحدة . ولم يعلق باي على دموعها التي راحت تجري فوق وجنتيها ، ولم يقل لها حتى كلمة وداع عندما بلغا باب المنزل ، ولكن عبارة حظا سعيدا المتهكمة التي تفوه بها ، تردد صداها في أذنيها طول الطريق المؤدية الى غرفتها ، حيث ألقت بنفسها على الفراش وانفجرت باكيا .

بدأ أبوها يوضح الحوقف وقال:

"توقف باي ل...."

ولكن باي قاطع حديثه وقال:

"يمكنك أن تسمي هذا آخر خدمة مفيدة أقدمها لك. أريد يا سابرينا أن تقابلي هاول فلتشر."

سمعت صوت رجل ينم عن ثقافة يقول:

"هل هذه هي السيدة الشابة التي حدثني عنها؟"

وتقدم لتحيتها وأستطرد يقول:

"الآنسة لين، أرجو أن يكون لقاءنا من دواعي السرور لكلينا."

وقدمت سابرينا يدا مرتبكة لتحيته، وقالت معذرة:

"أنا آسفة... لا أظن أنني أدرك تماما سبب زيارتك!"

"فقال باي موضحا:"

جاء إلى هنا ليرى أعمالك الفنية، ويدلي برأيه في مهارتك

الفنية وتفكيرك."

وافتقدت سابرينا الدفء الذي تعرفه في صوت باي، فبدأ

لها شخصا غريبا، ولم تقسم خبرته بالسخرية أو الصداقة

التي اعتادت عليهما.

"لا أظن...."

وتوقفت عن مواصلة الحديث وكأنها كانت تعترض بخشونة

على أن تكون أعمالها الفنية هدفا لتقييم أحد النقاد

المختصين، فقال هاول فلتشر:

"يمكنك أن تكشفني الآن ما إذا كنت بددت وقتك في الرسم أو

النحت أم أنك قد أنجزت عملا فنيا عظيما!"

حدثت سابرينا نفسها بما قاله باي بأنه يؤدي لها خدمة

مفيدة.

رفعت رأسها وقالت:

"أحتفظ بكل أعمالني في الاستوديو في الطابق العلوي. هل

أنت قادم معنا يا باي؟"

ويبدو أن باي لم يكثر كثيرا حتى يعرف نتيجة التقييم،

وإنما استأذن في الانصراف من غرانت وهاول، وتجاهل

سابرينا تماما.

قادت سابرينا، هاول فلتشر إلى الاستوديو، ولم يتقوه

الرجل بكامة واحدة وهو يقوم بدراسة كل قطعة فنية، ولم

تهتم هي بالأمر، بل أنها لم تكثر لرأيه المرتقب،

١٠ - تقييم فني

نادى غرانت لين على ابنته من الطابق الأسفل:

سابرينا... هل يمكن أن تنزلي أود رؤيتك دقيقة واحدة."

فنهدت سابرينا بتناقل وقالت:

"ألا يمكنك الانتظار يا أبي؟"

أجاب:

"لا... إن الأمر بالغ الأهمية."

قامت سابرينا بتغطية النماذج التي أوشكت أن تنتهي. وكان

في وسعها أن تقنع أباها بتأجيل ما يراه مهما، إن هي أصرت

على عدم النزول. ولكن الإغواء بلغ بها حدا لم تستطع معه

مواصلة النقاش فخلال الأسبوعين السابقين كانت تعمل بجد

كبير وتنام قليلا.

قالت:

"سأنزل حالا، ماذا تريد مني يا أبي؟"

وراحت تهبط السلم، وعندما بلغت منتصفه شعرت بوخزة

في ظهرها، وألقت اللوم على أعصابها المتوترة، وتوقفت عند

الدرجة الأخيرة، بينما كانت رأسها تندفع تجاه نهاية السلم،

عندما فوجئت بصوت باي المتهمم يكبح من سرعتها وهو

يقول:

"أهلا... سابرينا... اعتذر لتعطيلك عن العمل."

أحنت سابرينا رأسها، وهبطت الدرجة الأخيرة، وهي تدس

يديها المضطربتين في جيبها، وقالت:

"إنها مفاجأة لي يا باي. ما الذي أتى بك إلى هنا؟"

رجل واحد فقط يهجمها، إنه باي الذي جاء وانصرف قبل أن يخفق قلبها المحطم مرة ثانية.

كان عملها الفني يملأ ساعات الوحدة والفراغ. وكان سببا يدفعها الى النهوض من قراشها كل صباح. وكانت تأمل أن يأتي اليوم الذي تساعد فيه أعمالها الفنية على الاستقلال عن أبيها. كانت ترغب في أن يتزوج من ديبورا، وينعم بالسعادة معها. ومن العدل أن يفوز أحدهما بالإنسان الذي يحبه. أما هي فقد فقدت باي!

سألها الرجل بعمق:

«ما مقدار العمل الذي أنجزته منذ أصبحت عمياء يا آنسة لين؟»

قالت وهي في غيبوبة:

«النحت. أما اللوحات الزيتية فقد أنجزتها قبل إصابتي في الحادث.»

قال معقبا:

«فهمت أنك تعرفت الى السيد كامبرون منذ بضعة شهور.»

دعكت سابرينا ظهرها في قلق، ثم قالت:

«أجل... هذا صحيح.»

«كيف صنعت هذا التمثال النصفي؟»

فاعتلت ابتسامة شاحبة شفتيها وقالت:

«إن الأعمى يرى بيديه يا سيد فلنشر.»

«أنت لم تسأليني بعد عن رأيي في أعمالك الفنية، اليس في لهفة الى معرفته يا آنسة لين؟»

هزت كتفيها باستخفاف وقالت:

«تعلمت من تجربتي أن الناقد يدلي بنقده دون أن يسأله أحد، كما أن الثناء يمنع بلا سؤال.»

فقال معقبا:

«لك قدر ملحوظ من الحكمة.»

«ليس في جميع الأحوال.»

وكانت تعني أنها لم تتدبر أمر حبها بحكمة.

وبدا هاول فلنشر في الحديث - أو بالأحرى - في النقد. ولم يتحدث في كلمته، وإنما كان يقوم بنشر كل قطعة فنية على حدة، دون أن يبالي أنه يقوم بتقطيع مستقبلها الفني الى شرائح. كان يجذب انتباهها الى كل عيب يشير اليه مهما بلغت دقته. وكان كسل موضوع يطرحه بين يديها، يعد

امتحانا لها.

واستمر صوت الناقد المثقف في نقده، حتى ودت سابرينا أن تصرخ فيه لكي يتوقف عن الاسترسال في حديثه. فقد بدا الفشل الذي منيت به في أعمالها الفنية يثقل كاهلها، وبذلت جهدا كبيرا حتى لا تتلقى الضربة القاضية منه.

كان يكفيها الآم قلبها المهجور، والضربة القاضية كفيلا بأن تزيد من كآبتها، ولكن شهورها بالكبرياء دفعها الى أن ترفع رأسها عاليا وهي تستمع الى تشريح الناقد للقطعة الفنية الأخيرة. وأطبق صمت عميق بعد أن تفوه عبارته الأخيرة، فتنفست سابرينا الصعداء وقالت:

«حسنا... أنا لم أعرف إلا أنني فنانة هاوية، غير مقتدرة.»

ضحك الناقد وقال:

«يا إلهي... أنت لست غير مقتدرة... ولست هاوية... من قال ذلك يا طفلي؟»

هناك بعض القطع الفنية التي ينقصها الاتقان، وبعض القطع التي تفتقد الحياة، وتحتاج الى بذل مزيد من الجهد، ولكن بقية القطع مذهلة للغاية، ولا يمكن أن نصدق مبلغ الكبرياء والقوة اللتين تمبر عنهما ملامح الوجه الذي قمت بتشكيله في التمثال النصفي الذي يصور باي. كما أن العاطفة تجدد بالفة الأثر في تمثال السيدة. أنت تحاولين إبراز ملكتك الفنية في الأشخاص، مثلما برزت في لوحاتك. أنت تبعتين الحياة فيهم وترتفعين بالسمات الى الدرجة التي تجذب اليهم أنظار الناس.»

لم تستطع سابرينا أن تصدق ما يتفوه به هاول فقالت:

«إذن... هل تظن أنه من المحتمل علي أن أواصل العمل؟»

أعلن هاول فلنشر قائلا:

«إذا حافظت على هذا العمل، وهذا المستوى، فإنني أستطيع أن أعدك بأنك ستقيمين معرضا خلال ستة أشهر.»

فقالت سابرينا:

«لا بد أنك تمزح.»

«عزيزتي... إنني لا أمزح في مسألة المال، وأرجو أن تغفري لي عندما أقول إن عمالك سوف يلعب دورا كبيرا في الدعاية لمعرضك الذي سيكون مزيجا بين أفضل لوحاتك، مع أفضل تماثيلك، ثم نشرع في دعوة الأشخاص المنصفين.»

قاطعت سابرينا وهي تخشى أن يكون باي قد بالغ

في تقدير كل هذا فقالت:

"إنك تقول هذا إرضاء لباي، أليس كذلك؟"

سألها وكان كرامته قد جرحته:

"هل تسألين عما إذا كان باي قدم لي رشوة لكي أقول لك ذلك؟ اعلمي إذن أن باي كامبيرون بذل ضغوطا مضنية لكي يحملني على الحضور إلى هنا اليوم، إنني لست مستعدا لكي أغامر بشهرتي من أجل أحد، وإذا لم تكن لديك الموهبة أو الفكر السديد، فأنتي قادر على أن أخبرك برأيي بصراحة." صدقته سابرينا، وأصبحت تشعر أنها تمسك بكأس النجاح في قبضة يدها.

وتركت الرجل يرسم لها خطة إعداد المعرض، ولكنها لم تستمتع بخلاوة النجاح لأن الرجل الذي تحبه لم يشاركها فيه. كان الانتصار يبدو لها مثل الطبل الأجوف... كحياتها تماما.

* * *

أعلن هاول فلتشر بأن المعرض سوف يقام خلال ستة أشهر، وحدد موعد افتتاحه بالأسبوع الأول من شهر ديسمبر - كانون الأول واختار هذا التوقيت لأنه يناسب فصل الاجارات، وانطلاق الأموال من جيوب أصحابها، وأدركت سابرينا أن تقدير هاول للفن يسير جنبا إلى جنب مع تقديره للمال. تمتم أبوها حتى لا يسمعه المحيطون بها:

"لقد نجحت يا سابرينا، سمعت ثناء وراء ثناء يطري قطعك الفنية."

قابتسمت سابرينا ابتسامة شاحبة، لتبرة الفخر العظيم الذي اتسم به صوته، وليس لكلماته التي قالها عن نجاحها، وكانت تتصور ابتسامته المشرقة التي اعتلت وجهه. وقال هاول فلتشر الذي كان يقف في الجانب الآخر من سابرينا:

"كلمات الاطراء رخيصة يا سيد لين، ومع هذا حققت نجاحا عظيما يا عزيزتي سابرينا، لأن ضيوفنا دفعوا أموالهم امتثالا لما حكمت به أقوالهم."

قالت سابرينا بنعومة:

"شكرا لك يا سيد هاول."

"أنت تعرفين يا سابرينا أن الدبلوماسية تستحوذ دائما

على عقولنا، لذا سأضطر الآن إلى القيام بجولة، أما أنت فيمكنك المكوث هنا."

وتناهى إلى سمعها صوت نسائي دافئ يناديها قائلا:

"سابرينا... أنا باميلا تايسن، كنت مدعوة في حفل بمنزلي منذ عدة أشهر."

مدت سابرينا يدها تحيياها، وقالت:

"طبعاً سيدة تايسن، أذكر ذلك تماما. كيف حالك؟"

زجرتها السيدة وهي تقول بسخرية:

"أشعر بضيق قليل إذا كنت ترغبين معرفة حالي، إنه لأمر رهيب ألا تفضي لي بعوهدتك الرائعة، وانتظر حتى أضغ يدي على حفيدي باي، وسوف ألقنه درسا أو اثنين لأنه أخفى سرى عني."

ابتلعت سابرينا ريقها وهي تقول:

"ليس هناك ما يمكن أن يقال..."

كان قلبها يخفق بضربات متوثبة، ويد باردة تمسك بعنقها في كل مرة يذكر فيها اسم باي.

قالت باميلا:

"أظن أن باي سيأتي إلى هنا الليلة ليشاركك الاحتفال بتجارك. إنني واثقة أنه سيقطع رحلته البحرية التي يقوم بها إلى باجا بولاية كاليفورنيا حتى لا تفوته مناسبة كهذه." وحاولت سابرينا ألا يبدو على صوتها نبرة الاهتمام وهي تقول:

"أوه... هل كان باي يمضي هذه الفترة هناك؟ لم أره في الأونة الأخيرة. كنت منهكة في الاعداد لهذا المعرض."

وكان من الواضح أن السيدة باميلا تايسن لم تكن تعرف أن باي وسابرينا قد افترقا منذ عدة شهور مضت، كما أن سابرينا لم تود بدورها أن تفضي لها بهذا الأمر. وبدأت السيدة تايسن لها بملحوظة، قائلة:

"إن التمثال النصفى الذي يصور باي يكاد يخطف الأبصار، وكل إنسان يتحدث عن مدى الشبه بينهما. ولا بد أن هاول يدرك مدى نجاح التمثال، وهذا واضح من الثمن الباهظ الذي قدره له."

وهزت سابرينا كتفيها دلالة على أنه لا تعنيها كثيرا مسألة

الثمن، وقالت:

"أنا مهرة فنانة..."

ولم تكن سابرينا راغبة في عرض التمثال، ولكن حاول كان صلب الرأي في مناقشاته معها، وأصر على ألا تتيح الفرصة لمشاعرها بالتدخل في قرارها، فأذعنت له بشرط ألا يعرض التمثال للبيع.

وكانت سابرينا تعرف أن تفكيره في مجالي المال والفن لا حدود له، وحتى لا يثار التساؤل في عدم عرض التمثال للبيع اقترح هاول أن يضع ثمنها باهظا له حتى لا يستطيع أحد شراؤه. وأخيرا وافقت على اقتراحه.

وسألتها بامبلا:

"ماهي ردة فعل باي عندما رأى التمثال الذي يصوره أبلغ تصوير؟"

واختار أحد الصيوف هذه اللحظة ليقدم التهاني الى سابرينا، فاستطاعت أن تتجاهل السؤال الذي وجهته لها بامبلا، ولحسن الحظ التقت بامبلا بأحد معارفها، فانتحيا جانباً وراحا يتجاذبان أطراف الحديث، فأصبح في وسع سابرينا أن تهرب من الإجابة على سؤالها تماما.

قالت لها إحدى السيدات:

"كل اللوحات والتمائيل مذهلة يا آنسة لين، مذهلة تماما."

إنها تثير الإعجاب.

هزت سابرينا رأسها بأدب وقالت:

"أشكرك."

وتدخل هاول فلتشر في الحديث وأمسك مرفق سابرينا وقال:

"اسمحي لي سيدة هاميلتون، لابد أن أسرق سابرينا منك لدقائق معدودات."

وقدمت سابرينا اعتذارها للسيدة، وسمحت لهاول أن يقود طريقها. وأخذت العصا العاجية تتحسس السبيل أمامها، وكان هاول ينسى أحيانا أنها عمياء، فيتركها تصطدم بالاشياء التي تعترض طريقها.

سألته:

"من هو الشخص الذي تدفعني الى روءيته هذه المرة؟"

فقال بصوت يشوبه الوجل:

"لا أعرف كيف أخبرك بدقة يا سابرينا، لدي مشتر للتمثال النصفى، وهو يرغب في رؤيتك."

قالت بحدة:

"مشتري؟ أنت تعرف أن التمثال ليس للبيع."

فأجاب مدافعا:

"حاولت أن أشرح له أنك غير راغبة في التخلي عنه، لأن ثمنه الحقيقي أقل مما هو مقدر له، وخشيت أن تبلغ هذه الحقيقة أسماع الصيوف، فتعرض الأسعار الأخرى للمساومة."

فقالت سابرينا متهمته إياه:

"أما كان الأجدر بنا ألا نعرض التمثال في المعرض. أنت تدرك مقدار شعوري نحوه."

وافق على كلامها بهدوء قائلاً:

"أجل... أدرك ذلك تماما. يمكنك أن تناشديه نخوته الطيبة، وتحاولي إقناعه باختيار تحفة فنية أخرى. إنه ينتظر في مكتبي حيث الخلوة التي تتيح لكما المناقشة الحرة."

قالت سابرينا بإصرار عندما خلفت وراءها أغلب الصيوف، لتدخل إحدى القاعات الخلفية:

"لن أبيع التمثال. ولن أهتم كثيرا بما قد يترتب على قرارى."

ولم يحاول هاول أن يعقب على كلامها، وأبطأت خطواتها عندما بلغا بابا مفتوحا، ودخلت القاعة، ورفعت رأسها في عزم وإصرار وتمتم بكلمتي حظ سعيد، وهو يغادر الغرفة ويفلق الباب وراءه، فتلقت حولها، وارتجفت وهي تنشد معونته.

وفجأة سمعت شخصا ينهض واقفا، ولما كانت قد ترددت على المكتب عدة مرات، فإنها عرفت أن المشتري كان يجلس على الأريكة الفيكتورية الصنع، الواقعة مقابل الجدار. ورسمت سابرينا ابتسامة على شفتيها، وتقدمت تخطو نحو الصوت. ومدت يدها لمصافحته وهي تقول:

"أنا سابرينا لين، كيف حالك. أخبرني هاول بأنك حريص على شراء قطعة فنية أثيرة الى نفسي."

"هذا صحيح يا سابرينا."

وصعقت لسماعها الصوت، وسقطت يدها الممدودة لترتد الى جانبها، حتى تظل رابطة الجأش. وكادت الأرض تميد بجنون تحت قدميها، ولكن ركبتها كانتا تهتزان هلعا.

"باي... باي كامبيرون!"

رددت اسمه بأنفاس متقطعة، وأن كانت نبرة الفرحة تشوب صوتها وأردفت تقول:

"يا لها من صدفة! بامبلا تايسن أخبرتنى منذ لحظات

بأنك تقوم برحلة بحرية في باجا . إنه من الصعب أن يتواجد شخص في مكانين في وقت واحد .

ثم حدثت نفسها قائلة: هاول هذا الخائن . لماذا لم يخبرني بأن باي هو الشخص الذي يترقب انتظاري؟ ولا عجب أن يتسلل هاول ويتركنا وحدنا .

سمعت باي يقول بنبرة أشاعت القشعريرة في أوصالها :
"إنه خطأ افترفته بامبلا ، فقد أعددت العدة للعودة بعد مضي بعض الوقت . أرى أنك قد حققت النجاح الذي كنت تنشدينه .
ما شعورك الآن؟"

فقال قلبها : شقية ، ولكن لسانها كذب وقال له :
"سعيدة !"

قال باي بسخرية :

"بيدو مظهرك أنيقا ومتخما للغاية ، وأنت في ثوبك الأسود .
وقد التف عقد من اللؤلؤ حول عنقك الطويل ، فأضفى عليك لمسة بسيطة ولكنها رائعة . وقد اجتمع الفستان والعقد ليبرزاً الشحوب والجمال على بشرة وجهك . وكأنما كنت تكابدين مأساة عظيمة ، ونجحت في التغلب عليها . ولا شك أن الصحافة وجدت في قصتك ما يشغل صفحاتها ."
وتأقت نفسها إلى أن تقول له بأن مأساتها تكمن في فقدانها له وليس في فقدان بصرها ، ولكنها التزمت الصمت ، وهي تحاول ألا تسمع سخريته التي تختفي وراء نبرة صوته .
واستطرد يقول :

"يرادني التفكير في أنك سوف تنبذين عصاي وتستعفيين عنها بأخرى ."

وكانت إشارته إلى العصا العاجية التي تحملها ، تدفعها إلى أن تتشبث بمقبضها بشدة ، وكأنها كانت تخشى أن يحاول استعادتها منها .

فقالت سابرينا باستخفاف :

"ولم أفعل ذلك؟ إنها تؤدي غرضها ."

قال باي بجفاء :

"لن أتهمك فأقول إنك ترتبطين بها ارتباطا عاطفيا للغاية ، ولكنني عندما تطلعت إلى التمثال النصفى الذي صممته لي ، أدركت أنك تنظرين إلى علاقتنا السابقة بشغف كبير ."
قالت :

"شيء طبيعي . . ."

ونم اهتزاز صوتها عن مبلغ عمق ولعها به . وأردفت تقول :
"هذا علاوة على أنني سبق وأخبرتكم مرة بأنني أحب وجهك .
إن ملامحك قوية ، وشامخة ."
قال :

"هل أخبرك هاول أنني أزمع شراء التمثال ."

قالت ضاحكة :

"أجل ، ولكنني لم أعرف أنك أنا اني يا باي ، تخيل أنك تشتري صورة لنفسك ."

"سيكون تذكارا جميلا . . ."

قالت متلعثمة :

"باي . . . أنا . . ."

وتحركت قليلا حتى دنت منه ، وهي تشعر بعينيها تتفرسان في وجهها الذي راح يهتز من القشعريرة والبرد . واستطردت تقول :

"هناك خطأ . هاول جاء بي لأن . . . حسنا . . . التمثال ليس للبيع ."

سألها باي وكأنه لم ينزعج لصوتها المتلعثم :

"ولماذا ترفضين بيعه؟ أظن أن الهدف من هذا المعرض هو بيع المعروضات ."
قالت :

"المعروضات للبيع فيما عدا التمثال النصفى الذي حددنا له ثمنا باهظا حتى لا يستطيع أحد شراؤه ."

فقال بهدوء :

"أنا أستطيع شراؤه ."

فقالت في يأس مهميت :

"كلا . . . لن أدعك تأخذه مني ، فقد أخذت كل شيء عندي .
أرجوك دعني أحتفظ به ."

قال ضاحكا :

"أخذه منك !"

وزحفت يده لتقبض على رسغها ، ثم أردف يقول :

"ماذا أخذت منك؟ هل نسيت أنني الشخص الذي عرفت كيف تستغليته من قبل؟ لماذا لا تأخذين نقودي؟ لقد أخذت كل شيء ثمين قدمته لك ."

قالت :

"ماذا قدمت لي؟ الشفقة؟ العطف؟ الاحسان؟"

وراحت تضرب الأرض بعصاها في حدة واضحة، وكانت كل ضربة تتردد مع كل كلمة غاضبة تنفوه بها. ثم استطردت تقول:

"متى يكون للأشياء المهنية قيمة ثمينة. ولمن تقدم الأشياء الثمينة؟ بالتأكيد لا تقدمها لي. إنك لم تكثر بي كثيرا. إنني في نظرك مجرد حالة تقدم لها الاحسان".
وانطلقت تنهيدة عميقة من صدره وهو يتساءل:
"هل مازلت تؤمنين بأنني أشعر بالأسف لك؟"
قالت سابرينا:

"كنت بالتأكيد لا تحبني".
وقبضت يدها على كتفها وأدار وجهها نحوه، ثم قال:
"وإذا كنت أحبك، فهل يختلف الموقف؟"

وقالت سابرينا لنفسها لو لم تبعث لمسة يده ومضة نارية تجري في سلسلتها الفخرية لاستطاعت أن تصمد أمام الألم الذي كان يمزق قلبها، أما وهي تشعر الآن بالعجز في أعماقها، والكبرياء لا تستطيع أن تشد أزرها، فليس أمامها سبيل إلا أن تلقي بنفسها على صدره. وقالت له وهي تنهد:
"لو أنك أحببتني قليلا يا باي... لما توانيت عن أن أحبك بجنون، ولكن ماذا تفعل فتاة مع رجل يشعر نحوها بالشفقة... لأنها عمياء؟"

وخفت حدة صوته، وترك يده كتفها، لتمسك برسغها، بينما دغدغت اليد الأخرى برقق وجنتيها. وقال:
"إنني لم أشعر مطلقا بالشفقة نحوك، كنت غارقا لأذني في حبي لك، حتى بت أخشى أن أفقد قطرة من هذه العاطفة".
وانتحبت سابرينا في ألم، وهي تحاول أن تنفلت من ضمته الرقيقة وقالت:

"باي. لا تكذب علي. ألم تخجل من سلوكي الذي كان يدفعك إلى السخرية مني؟"
قال باي:

"لا أكذب عليك صدقيني. إن الجحيم الذي كابדתه خلال الشهور السابقة لم يدفعني إلى السخرية منك".
قالت تسأله حتى يتوقف عن تعذيبها:

"أنا فتاة عمياء يا باي. كيف يكون في وسعك أن تحبني".
يا ملكتي العمياء... الجميلة والشجاعة، هل تسألين كيف أستطيع أن أحبك؟"

وكان صوته دافئا صادقا، وبددت نبرة الاخلاص فيه الخوف الذي كان يملأ قلب سابرينا فقالت له:

"لن تحاول خداعي مرة ثانية، أليس كذلك يا باي؟ لا تفعل ذلك معي إذا كان التمثال هو كل ما تبغيه سأهبك إياه عن طيب خاطر إذا توقفت عن الكذب علي".

وأطبقت يدها على كتفها، وجذبها إلى صدره ووضع يدها على قلبه الذي ترددت نبضاته فوق راحتها. وكان نبض قلبها في سباق جنوني مع نبض قلبه وأخيرا ألقت وجهها بين يديه. وهمس في أذنها قائلاً:

"كونك ضريبة، لا يقلل من شعوري بأنك امرأة عندما أضمك بين ذراعي".

فتمتمت قائلة وهي تلقي برأسها فوق قلبه:

"لم تدعني أشعر بذلك مرة..."

ضمها إلى صدره بيدين قويتين وكأنه يخشى أن تحاول الهروب منه ثانية وقال لها:

"أحببتك حبا عميقا منذ البداية، وربما بدأ ذلك في تلك الليلة التي لجأنا فيها إلى زورقي هربا من المطر. لا أدري... ولكنني قلت لنفسني يجب أن تأخذ الأمر بهوادة، فلنك تتصفين بالكبرياء والعناد والتحدي. لذلك لم أحاول أن أؤكد لك في البداية بأنني أحبك، لأنك ما كنت ستصدقين مشاعري. أنه ليس هناك شيء مستحيل مادمت قد عقدت العزم على تنفيذه وبعد تلك الانجازات فكرت أن أدفعك إلى أن تحبيني. ولا يمكنك أن تتصورني مدى عنف الصدمة التي تلقيتها يوم أن أخبرتني بأنك لم تعود في حاجة إلي".
وابتسم باي بينما ازدادت سابرينا اقترابا منه وتمتمت بحرارة:

"أنا محتاجة إليك، أنا أريدك بجنون. كنت أرتعد عندما يراودني الاحساس بأنك تشعر بمزيد من الشفقة نحوي".
لم أشعر بالشفقة نحوك، وإنما بالفخر بك".

واستدارت برأسها نحوه في تساؤل وخيرة وقالت:

"بالفخر بي؟"
"كنت دائما فخورا بك لأنك كنت دائما تقبلين التحدي الذي أوجه لك".

وراحت تذكره بابتسامة:

"كنت أقبل التحدي مع الاحتجاج".

قال باي ضاحكا:

"لا يستطيع أحد أن يتهمك بأنك لينة العريكة، أجل أنت عنيده ومحبة للاستقلال ولست سهلة الانقياد، كان ذلك واضحا منذ أول مرة التقينا فيها، وصفت وجهي".

وتركت سابرينا أصابعها تداعب وجنتيه وهي تقول:
"وأنت رددت لي الصفحة التي أثار غضبي، وأثارت معها حبي لك".

وأطبقت أصابعه بسرعة على يدها، وطبع عليها قبلة حارة-
ثم سألها:

"هل يمكنك أن تخبريني الآن، لماذا هربت مني عندما كنا في حفل باميلا؟ أريد أن أعرف الحقيقة هذه المرة".
ووثب قلبها وثبة مفاجئة، لأنها في هذه اللحظة لا تريد أن تتحدث ولكنها قالت:

"سمعتك تتحدث الى فتاة تدعى روني، وقالت إنك أتيت بي الى الحفل لأنك تشعر بالأسف لي، وأنت استخدمتني وسيلة لتثير الغيرة في قلبها. وأنت لم تنكر ذلك يا باي، وتعلقت بأمل أن تقول لها إنني على الأقل صديقتك، ولكنك تركتها تتحدث عني كأنسانة مسكينة سيئة الحظ، وتستحق الاحسان، وظننت أنها تقول الحقيقة، وهذا ما دفعني الى الهروب".
"إن أول شيء سوف أتذكره عندما نتزوج هو حدة سمعك. ولو أنك أنصت قليلا، لكنت سمعت بقية حديثي، فقد قلت لها أنني لا أحب أن أسمع منها أية تعليقات على المرأة التي أرمع الزواج منها".

وشابت صوتها موجة من الحب الدافئ وهي تقول:

"باي... هل تنوي الزواج مني؟"

"أنوي الزواج منك... إذا وافقت على طلبي".

فهمست وهي تلهث ألما:

"لا تسخر مني..."

وعانقها برقة أشعرتها بأن حبه يدد كل الظلام الذي يسود حياتها:

وبعد مضي لحظات دفعها باي بذراعيه، لكنها ترنحت مخو صدره لتنعيم بلمسات أصابعه، وأخيرا أمسك جسمها بحزم على مقربة منه فقالت له هامسة:

"حبيبي... كم أحبك - أرجو أن تمسك بي فترة قصيرة أخرى".

فقال بصوت ينم عن عمق حبه:

"إن الفترة القصيرة ستدوم طويلا".

وانفجرت شفتاها عن ابتسامة تتراقص بالسعادة الفياضة، وقالت:

"باي... الباب له قفل".

فقال باي يذكرها:

"هناك عدد كبير من الناس يتساءلون ماذا حدث لنجمة المعرض".

فأجابت:

"لا أريد أن أكون نجمة..."

وسألها باي:

"وعملك..."

ولكنها قاطعته قائلة تتم كلمته:

"سيملأ اللحظات التي تكون فيها بعيدا عني. سيرضيني كل الرضا".

دمدم باي:

"أنت تعرفين أن العمل الفني ليس أمرا هينا وإنما يتطلب دقة الاحساس".

وهمست قائلة:

"أعرف ذلك..."